سلسلة في رحاب القرآن

٦

المذهب التاريخي في القرآن

العصمة

الصراط

بقلم

الأستاذ الشيخ محمد مهدي الآصفي

چاپ : امیر
قیمت : [redacted] ریال

سلسلة في رحاب القرآن

٦

المذهب التاريخي في القرآن

العصر

الصراط

بقلم

الأستاذ الشيخ محمد مهدي الآصفي

دار القرآن الكريم

بمناسبة المؤتمر الرابع للأبحاث والدراسات القرآنية في دارالقرآن الكريم، قم ٢٧ رجب ١٤١٢ هـ

سلسلة في رحاب القرآن (٦)

(المذهب التاريخي في القرآن- الصراط - العصم)

- المؤلف: سماحة الشيخ محمد مهدي الآصفي
- الناشر: دارالقرآن الكريم، قم- ص.ب ١٥١
- الصفّ والاخراج الفني الكمپيوتري: دارالقرآن الكريم
- زينغراف: حميد - قم
- تعداد: ٣٠٠٠ نسخة
- التاريخ: ٢٧ رجب ١٤١٢ هـ

المذهب التاريخي
في القرآن

بسم الله الرّحمن الرّحيم

المذْهَب التاريخيّ في القُرآنْ

فلسفة التـاريخ : علـم حديـث بالمعنى المنهجـي المطروح اليـوم في الثقـافة المعاصرة . ومهما قيل في الجذور التاريخية لهذا العلم ، فإن هذا العلم-بالمنهجية المعاصرة-أمر جديد في ثقافة الإنسان .

هذا العلم يعنـى باكتشاف القوانين الحـاكمة على التاريـخ ، لتقنينه واكتشاف العلاقة بين حوادثه .

ولئن كـان هذا العلم أمـراً جديداً ، في الثقـافة الإنسانيـة ، فإننا نجـد أن القرآن الكـريم يطـرح أفكاراً ، وآراءً ، وقـوانين محـدّدة ، فـي هذا المجـال ، ومن الممكـن تجميع هذه الأفكار ، والتصـورات ، والقوانين وتنظيمها واستخراج المذهـب القرآني في التاريخ منها .

تمهيد

في تفسير وفهم التاريخ أمامنا ثلاثـة اتّجاهات علميّة معاصرة نقف وقفة قصيرة عنـد كل واحـد منهـا، ليتسنى لنـا الانطلاق منهـا -فـي هذا التمهيـد- الـى معرفـة المذهب التاريخي في القرآن.

الإتجاه الأول: ينفي إمكـان فهم وتفسير التاريـخ، على أساس قانـون العليّة، وينفي وجود الحتمية العليّة في التاريخ بالقوة والـوضوح اللذين نجدهما في الفيزياء والميكانيـك-مثلاً-مـن دون أن ينفي أصحـاب هذا الإتجـاه قانـون العلية رأسـاً في التاريخ.

وإنما يعتقـدون أن حضور (إرادة الإنسان) في سـاحة الحضارة والتاريـخ، بما تمتلك هذه الإرادة، من حرية القرار، والاختيار، تحجم دور قانون العليّة، وتقلل من حجم الحتميّة والتعميم، في مساحة التاريخ.

الإتجاه الثاني: يفسر أحـداث التاريـخ بنفس الطـريقة التـي يفسر بهـا عالـم الفيزياء والميكانيك قضايا الفيزيـاء والميكانيك، ويعتقد أصحاب هذا الإتجاه، أن الحتمية العليّة تحكم التاريخ، كما تحكم الفيزياء، وبنفس الوضوح والقوة.

الإتجاه الثالث: يعتـرف بحضور وحـاكمية إرادة الإنسـان في التـاريخ، كمـا يعترف بحاكمية قانون العليّة في التاريخ، ويعتقد أصحاب هذا الاتجاه إننا يمكن أن نفهم التاريخ، مـن خلال هذين العاملين، دون أن يقلل أحدهمـا من قيمة الآخر... دون أن يأخذوا بنظر الإعتبار دور الرعاية الإلهية للتاربخ والإنسان.

وإليك تفصيل هذه الإتجاهات:

الإتجاه الأول:

أصحاب هذا الإتجاه ينفون علاقة العليّة والسّببية في حركة التاريخ، ويعتقدون أن من غيـر الممكن أن يخضع الحـدث التاريخي والحضـاري والإجتماعي لقـانون العليّة، بنفس الطـريقة التي تخضع لها قضية فيـزياوية أو ميكانيكية لقـانون العليّة، بما في هذا القانون من الحتمية والتعميم.

ففـي حقل الفيـزياء، يمكننـا أن نعمم نتـائج كل تجـربة فـي ظروف وأسبـاب مشابهة، على امتداد المكان والزمان، كمـا يمكننا أن نحكم بحتمية هذه النتائج في الظروف المشابهة، فحين يثبت لنا بالتجربة غليان الماء، عندما ترتفع درجة حرارته، الى مائة درجة مئوية، عند مستوى البحـر يمكننا أن نعمم نتيجة هذه التجربة، على الحالات المشابهة الأخـرى، كما يمكننا أن نحكم بحتمية هذه الحـالة(الغليان) في الحالات المتشابهة.

وهـذان الأصـلان(الحتمية والعليّـة) تـابعـان لقـانـون العليّة، وفـي الفيـزيـاء والميكانيك، كمـا في سائر العلوم المـادية التجريبية، يجـري قانون العليّة بـوضوح وقوة.

أمـا في مسـاحـة الحضارة، والمجتمـع، والتاريـخ... فـلا يمكن أن نحكـم بجريان قانون العليّة بنفس القوة والوضوح، وذلك لأن حضور العنصر الإنساني، في مساحـة التاريـخ، وحريـة إرادة الإنسان، وحريـة إختياره وقـراره يحجم دور قـانون العليّة، ويقلل من قيمته في حركة التاريخ، وبالتالي فإننا لا نستطيع أن نفهم التاريخ بصورة واضحة، بمـوجب قانون العليّة، كمـا نفهم الفيزياء مثـلاً، ولا يمكن أن نتنبأ بالمستقبل، ونكتشف مجاهيل التاريخ، بموجـب قانون العليّة، كما نفهم ذلك في الميكانيك والفيزياء، وذلك لأن التاريخ مسرح واسع لحركة الإنسان، وحرية إرادته، وقراره وهذا ما يجعل للتاريخ صفة متميزة وخاصة.

يقول كارل د. بوبـر في كتابه «The poverty of Historicism»: «إن النظرية القـائلة بـأننـا نستطيـع أن نأخـذ التعميـم مـن الفيزيـاء، ونستعملـه فـي التاريـخ، والحضارة، والاجتماع تؤدي الى نفي حركة التكامل في المجتمع». (١)

ثم يقول في موضع آخر من كتابه:

«والفيزيـاء تستفيد من التجـربة، وعن طـريق التجـربة يستطيع هـذا العلم أن

(١) الترجمة الفارسية: أحمد آرام ص: ١٨.

يعرف طريقة إيجاد الحالات المتشابهة من الأوضاع المتشابهة، وأوضح أن ذلك يتوقف على الفكرة التالية: في الأوضاع والظروف المتشابهة تتكون الظواهر المشابهة».

يقول أصحاب المذهب التاريخي أن هذه الطريقة لا يمكن الإستفادة منها في علم الاجتماع، وعلى فرض إمكانية تطبيق هذه القاعدة(التجربة) في دورة خاصة، فلا يمكن نقل التجربة من دورة الى دورة أخرى». [1]

ويقول«أدوارد هالت كار»في التعليق على نظريتي توينبي واشبنكلر:

تعتمد نظرية إشبنكلر وتوينبي على أساس وحدة التاريخ والعلم(يقصد العلوم الطبيعية القائمة على التجربة والتعميم)... وهذه الوحدة بين التاريخ والعلم وحدة كاذبة، ولا أساس لها من الصحة، ولا يمكن إجراء الأحكام التي تجري في العلم(العلوم الطبيعية) على التاريخ بالشكل الدقيق... فإن الظاهرة العلمية تتكرر، كلما تكررت نفس الظروف، وذلك لأن العناصر التي تتكون منها الظاهرة العلمية(الطبيعية) عناصر فاقدة للإرادة والشعور تجاه الماضي والعناصر الأخرى... بعكس الظاهرة التاريخية، فإن العناصر التي تتكون منها هذه الظاهرة تتمتع بالشعور والإرادة، هذه العناصر تعرف نهاية الدورة من بدايتها، فلا يمكن أن تتكرر الدورة السابقة. [2]

والمحصل من استقراء أطراف هذه النظرية أن القائلين بها ينفون حاكمية مبدأ العليّة، في حركة التاريخ، بالشكل التفصيلي والدقيق الذي يجري بموجبه هذا المبدأ، في حقول الفيزياء، والميكانيك، وسائر العلوم التجريبية، وينفون إمكانية التنبؤ بأحداث التاريخ والمستقبل، كما نتنبأ بأوضاع الكواكب، والنجوم، والشمس، والقمر مثلاً... والسبب في ذلك هو وجود العنصر الإنساني في مجرى

(١) المصدر السابق.

(٢) المجتمع الجديد -إدوارد هالت كار- ص: ١١. ترجمة محسن تلاش.

التاريـخ ، والتعقيدات التي تـرافق حضور الإنسـان في حركـة التاريخ ، ممـا يجعل التطبيق لقـانون العليّـة والتنبؤ بـالأحداث المستقبليـة بموجـب هذا القـانون عسيـراً جداً.[١]

الإتجاه الثاني :

يتجه باتجاه معاكس للاتجاه الأول، ويؤمن بأن التاريخ ليس بدعاً في أمور هذا الكون، ويخضع لقانـون العلية والسببية بالدقة، كما تخضع سـائر الأشياء في حقل الفيزياء، ويجـري فيه التعميم والحتمية، كما يجـري في الفيزياء والعلـوم التجريبية الأخرى.

وحركة التاريخ، فـي هذه النظرية، لا تزيد على الآلية التـي يتحكم فيها قانون العليّة بشكـل مطلق، ولا يوجد ثمـة عامل آخر غيـر عامل الحتمية العليـة، وعجلة التاريخ تتحرك كما تتحرك عجلة أي جهاز ميكـانيكي، بموجب قوانين حتمية، غير أن التعميم والحتمية تجـري في حقل الحياة الاجتمـاعية والتاريخ، وليـس في حقل الميكانيك ...

ونلاحظ في هذا التصور غياب العنصـر الإنساني، وإرادته، وحريته، واختياره بشكل كامل، فإن الإنسان يجري في ضمـن هذا الجهاز الواسع بصورة آلية، دون أن يملك اختياراً لنفسه في الحركة والسكون، ودون أن يملك إرادة في تقرير مصيره.

إن الإنسان، في هذه النظرية، يتحرك ويجري بموجب قوانين حتمية، دون أن يستطيع التحكم فيها، أو يستخدم إرادته ضمنها.

ومن رواد هذه النظـرية، من الغرب «مـونتسكيو»، مؤلف كتـاب (روح القوانين)

(١) ولا يعني ذلك أنهم ينكرون أصـل العلية، في الحدث التاريخي، وإنما يعتقدون أن طريقة عمـل قانون العلية في الحضارة والتاريخ تختلف عنها في الفيـزياء والميكانيك.

«وإشبنكلر»في كتابه الكبير[١] عن تدهور الحضارة الغربية و«توينبي»في كتابه(مطالعة في التاريخ).

يقول«إدوارد هالت كار»في كتابه المجتمع الجديد[٢]:

«هناك صلة مباشرة، وعلاقة قوية بين الماضي والحاضر، على أساس التأثير والتأثر، والفعل والإنفعال، ولا يمكن فصل الماضي عن الحاضر والمستقبل، ونحن مدينون، في هذا التصور الجديد للتاريخ، للاتجاه العلمي الجديد الذي يبحث في العلوم، عن القوانين، والأصول القابلة للتعميم».

يقول«مونتسكيو»في مقدمة كتابه(روح القوانين):

«أنا في هذا الكتاب شرحت الأصول فقط، ولاحظت مواضيع كثيرة تنطبق بصورة تلقائية على هذه الأصول... ومن هذا الانطباق القهري اكتشفتُ أن التاريخ ليس الا مُعطيات ونتائج هذه الأصول والقوانين».

ثم يقول«أدوارد هالت كار»بعد ذلك:

«كان إشبنكلر يعتقد بأن الحضارة الإنسانية تتبع بصورة دقيقة قوانين العليّة السببية وتخضع لها... وهذه القوانين هي التي تقرر بصورة دقيقة مصير الحضارة والبشرية، والنظام الذي يتبعه إشبنكلر في إستدلاله من الإستحكام والقوة بمكان لا يمكن رفضه والتشكيك فيه، في حدود المباني التي يتبعها صاحب النظرية»[٣].

ومن هذا المنطلق يمكن التنبؤ بالمستقبل، وحركة التاريخ والحضارة، والماركسية، وإن لم تكن تؤمن بقانون العلية، بالشكل الذي نؤمن به نحن في الفلسفة، لكنها تؤمن بهذا القانون، على طريقة جديدة(هي طريقة-الإطروحة والطباق والتركيب) إلا أنها تنتهي الى نفس النتيجة، من إمكان التنبؤ بالمستقبل،

(١) ترجمه الى العربية أحمد الشيباني.

(٢) المجتمع الجديد -إدوارد هالت كار- ص: ٩-١٢. من الترجمة الفارسية محسن تلاش.

(٣) المجتمع الجديد-إدوارد هالت كار-ترجمة محسن تلاش ص: ١٠.

وفهم مستقبل الحضارة، من خلال قانون التناقض والصراع الطبقي، وقد حدد«ماركس»المراحل الخمس للتاريخ من خلال هذا التصور للتاريخ، ومهما يكن المنطلق الذي يفسر العلماء من خلاله التاريخ: قانون العلية بشكله الفلسفي المألوف وقانون الإطروحة والطباق والتركيب فإن حركة التاريخ تكتسب في هذه النظرية الصفة الحتمية، وهي التي يطلق عليها عادة في هذه المدارس الفكرية بـ(الحتمية التاريخية).

المذهب التاريخي عند دوركهايم:

ومن العلماء الذين يذهبون الى الحتمية التاريخية، في حركة التاريخ، ويؤمنون بحاكمية المجتمع الحتمية، على حياة الفرد، وعدم قدرة الفرد على الإنفلات من سلطان المجتمع، هو«آميل دوركهايم»العالم الإجتماعي الفرنسي الشهير... فهو يؤمن بأن الأمور والشؤون الاجتماعية من معطيات الحياة الاجتماعية، وليست حصيلة فكر و إرادة الأفراد، ويعتقد بأن الشؤون الاجتماعية ذات ثلاث خصال دائماً، وهي الخارجية -والحتمية- والتعميم، فهي(خارجية) لأنها تُفرض على الفرد، من خارج وجود الفرد(من المجتمع) وهي موجودة في المجتمع قبل وجود الفرد، ويتقبل الفرد هذه المعطيات الاجتماعية ويستقبلها بتأثير المجتمع... والعادات، والأعراف، والتقاليد، والأخلاق الاجتماعية من جملة هذه الأمور.

وهي(حتمية) لأنها تفرض على الفرد فرضاً ولا يملك الفرد الخيار في قبولها ورفضها، وتطبع ضمائر، وأحاسيس، ومشاعر، وعواطف، وأفكار، وتصورات الأفراد بطابعها الخاص.

وهي(عمومية) لأنها حتمية، وتنطبق على كل الأفراد، في الظروف والحالات المتشابهة.[١]

(١) المدخل الى التصور الأسلامي قسم المجتمع والتاريخ للشهيد المطهري ص: ٣٢٩-٣٣٠. الأصل الفارسي.

يقول«أنتوني كيد نز»في دراسته الجديدة عن«دوركهايم» :

«من الملاحظات التي أوردها الأساتذة الذيـن ناقشوا رسالة دوركهايم للدكتوراه أن«دوركهايم»يعتبر العامل الاجتماعي هو العامل الوحيد لتكامل الأخلاق ...

والمجتمع عند«دوركهـايم»جزء من الطبيعـة ، فلابد أن يخضع علـم الإجتماع لنفس الأصول التي تخضع لها العلوم الطبيعية .

ويقول«دوركهايم»في رسالته للدكتوراه ، عن«مونتسكيو» : «إن«كنت»إستطاع أن يتجاوز معطيات عصــره والمتقـدميـن عليـه مـن العلمـاء ... فلـم يكـن يتيسـر بعد«لمـونتسكيو»شيء جـديد في هذا الحقـل الا القول بأن القـوانين الحاكمـة على المجتمع لا تختلف عن القوانين الحاكمة على القوانين الطبيعية ، ولا تختلف طريقة اكتشاف القوانيـن الاجتماعية عن طريقـة إكتشاف القوانين االطبيعيـة في الطبيعة ... وهذا الجديد اكتشفه كنت» . (١)

ويبْلُغ«دوركهايم»أقصى ما يمكن أن يقال ، بهذا الصدد ، فيقول :

«إن القضايا الاجتماعية ما هي الا«أشياء» : «Things» ولربما يكون هذا المعنى هو أكثر المفاهيم التي طرحها«دوركهايم»في كتابه«قواعد علم الاجتماع»إثارة للنقاش والجدل .

واعتبار القضايا الاجتماعية«أشياء»بمعنى أن تجريدها الكامل ... أمر لابد منه ، لكن نستطيـع أن نفهم القضايـا الجتماعية مستقلـة عن كل فـرد ، في هذه الحـالة ، فقـط ، نستطيـع أن نخضــع المجتمـع لـدراسـة مـوضـوعيــة ، إن أهــم خصيصـة في«الأشياء»هـو أنها لا تتبع إرادة شخص ، إننا إذا دفعنـا الكرسي يندفع كمـا نريد ، ولكن مقاومة الكـرسي النسبية تدل على أن هذه«المقاومة»خـارجة عن حيز الإرادة ، ولا تتبع إرادة شخص من الإشخاص .

وهذه الحقيقة تنطبق على القضايا الاجتماعيـة تماماً ، الا أنها ليست كالكرسي

(١) دوركهايم تأليف أنتوني كيدنز الترجمة الفارسية للكتاب ص : ٣١ . ترجمة يوسف أباذري .

من القضايا المرئية والمحسوسة، فإن القضـايا الاجتماعية توجد دائماً خارج الافراد، وتضغط على الافراد، وتقيدهم.

فإن كـل إنسان يـولد في مجتمـع قد تحـدد شكله ونظامـه وطبيعته، مـن قبل ولادته، ولم يكـن للفرد دور في تحديـد شكل، ونظام، وطبيعة المجتمـع من قبل، ومن الطبيعـي أن يحدد للفرد، في هـذا الحال، شكله ولـونه الخاص، ولربمـا تمر على المجتمع قرون طـويلة لا يتغير فيها شكل المجتمع، وتعيـش أجيال من الناس في هـذا المجتمع، وعليه فإن الفـرد لا يزيد على أن يكـون جزءً من كل كبيـر واسع الأطراف، وليس في الامكـان أن نفهم خواص الكل من خواص كـل فرد من أفراده، ويحاول«دوركهايم»أن يقرب هذا المفهوم بالتمثيل بالعناصر والتركيبات الكيمياوية، فالخصائص التي يتميز بها كل من الأوكسجين والهيدروجين لا توجد في قطرة الماء التي تتـركب منهما... ولقطـرة الماء خصائصهـا التي تختلـف تماماً عـن خصائص العنـاصر التـي تشكلهـا، وكذلـك المجتمـع بالنسبـة الـى العناصـر البشـرية التـي تشكلها[1]، ولهذا النحـو من الفهـم يفهم«دوركهـايم»المجتمـع والتاريـخ، ويعتبر القضـايا الاجتمـاعية بـالصـراحة«أشيـاء»خارجـة عـن نطاق إرادة الفـرد، كما هـي حالة«الاشياء»في الفيـزياء، ويعتبر الفرد محكوماً بهذا النظام، وليـس له من سلطان أو حاكمية على التاريخ والمجتمع.

الإنتقاص من قيمة الإنسان من الحتميّات التاريخيّة:

وبطبيعة الحال فـإن النظريات الحتمية تنتقص من قيمـة الإنسان، وتلغي دوره فـي صناعـة التاريـخ، فإن التـاريخ والحضـارة والمجتمع يتكـون بموجـب قوانيـن حتمية، تجري بمعزل عن إرادة الانسان، ورغبته. وتتحرك كما تتحرك الاشياء -كما يقول«دوركهـايم»- خارج دائرة إرادة الانسان، ويتـولد الانسان، ويفتح عينيـه على

(١) دوركهايم تأليف أنتوني كيدنز الترجمة الفارسية ص: ٣١-٣٢.

مجتمع أخذ صورته، وشكله، ونظامه من قبل أن يولد الانسان، فلا يكون له -إذن- دور يُذكر، في صناعة هذا المجتمع، ويجري، ويتحرك، ويتطور بموجب قوانين حتمية، بمعزل عن إرادته، بينما نجد أن للمجتمع والتاريخ دوراً في صياغة ذهنية الانسان، وتكوين أخلاقه، وتقاليده، وثقافته، وعقائده.

وهكذا تتطرف نظرية الحتمية التاريخية في الانتقاص من قيمة الانسان، ودوره في صناعة التاريخ، والحضارة، والمجتمع، الى حد إلغاء فاعلية إرادة الانسان«الفرد»في التاريخ والمجتمع، بينما يبالغ أصحاب النظرية الأولى في تعقيد دور الفرد في المجتمع، والتاريخ، الى حد إلغاء إمكانية التنبؤ بالمستقبل، والانتقاص من قيمة العلية في التاريخ، أو رفض جريان الحتمية، والتعميم الجاريتين في الفيزياء والميكانيك، في حقل التاريخ والمجتمع.

الإتجاه الثالث:

والاتجاه الثالث، في النظريات المادية، لا يلغي دور الإرادة، ولا قانون العلية، ويؤمن بهذا وذاك، ويسهم العنصر الانساني في بناء التاريخ، في الوقت الذي لا ينفي الحتمية العلية والتعميم العليّ، وتعتقد بإزدواجية العامل المحرك للتاريخ«قانون العلية»بآليتها المعروفة، وإرادة الانسان، وحريته في اتخاذ القرار...

هذه النظرية تقيم حركة التاريخ على أساسين فقط، وتنفي حضور الرعاية والمشيئة الإلهية في التاريخ، وتفهم هذه الحركة على أنها حصيلة التفاعل القائم بين إرادة الانسان وقانون العلية، وبالتالي تكون حركة التاريخ خاضعة لإرادة الانسان، في إستطاعة الانسان أن يوجه الحتمية العلية بالشكل الذي يريد، ويكون«الانسان»هو العامل المهيمن في هذه الحركة... ولكن من دون حضور«للمشيئة الإلهية»ورعاية الله لحركة التاريخ. وقد يؤمنون بشكل أو بآخر بالله تعالى، وبأن الله تعالى هو خالق هذا الكون وما فيه من سنن وقوانين، ولكن ينفون حضور المشيئة والرعاية الإلهية، في حركة التاريخ، كعامل أساسي ورئيسي في

تحرك التاريخ .

وهذا هو المنطلق اليهودي المعروف الذي يقول عنه القرآن الكريم : ﴿**وقالت اليهود يدُ الله مغلولةٌ**﴾(المائدة : ٦٤) . [1]

هذه هي أهم الاتجاهات المادية المعاصرة في حركة التاريخ ، ونقصد بالمادية كل النظريات ذات التوجه المادي في التاريخ ، سواء كان أصحابها يؤمنون بالله تعالى كاليهود أو ينفون وجود الله عزّ وجلّ .

وهذه الاتجاهات كما شرحناها ثلاثة :

١- التشكيك في قيمة ودور قانون العلية في حركة التاريخ .

٢- التشكيك في دور الانسان في حركة التاريخ .

٣- الاعتراف بدور قانون العلية ودور الانسان معاً في حركة التاريخ ، من دون الاعتراف بدور الرعاية الإلهية في حركة التاريخ ، وفيما يلي نحاول أن نكتشف أصول المذهب التاريخي في القرآن الكريم .

المذهب التاريخي في القرآن :

ليس القرآن الكريم كتاباً في الفلسفة يعنى بدراسة المسائل الفلسفية والتاريخية بصورة مشروحة ... و إنما هو كتاب دعوة وهداية وتشريع ... ولكننا نستطيع أن نستخرج من ثنايا آيات كتاب الله الاصول العامة للتفكير بشكل دقيق .

وعندما نستعرض الآيات القرآنية نجد خطوطاً واضحة تمكننا من رسم مجمل المذهب القرآني في حركة التاريخ .

إن المذهب الاسلامي في تفسير التاريخ يقيم التاريخ على ثلاثة أسس وليس أساسين فقط ، ويؤمن بأن بناء التاريخ لا يمكن أن يقوم على أساسين فقط ولا يمكن أن نفسر حركة التاريخ على أساس «قانون العلية» و «إرادة الانسان» فقط من دون أن

(١) نستظهر من الآية الكريمة أن اليهود كانوا يقصدون من الغل ما يقابل البسط وما يقابل الفاعلية والتأثير.

نأخذ المشيئة الإلهية ورعاية الله تعالى عاملاً أساسياً في حركة التاريخ بنظر الاعتبار.

وهذه الأسس هي :

١- قانون العلية .

٢- حرية إرادة الانسان .

٣- الرعاية الإلهية .

وفيما يلي نفصل هذا الإجمال :

١- قانون العلّيّة في التاريخ «السّنن الإلهيّة» :

الحياة الاجتماعية والحضارة البشرية والتاريخ ليست بدعاً من الامور في هذا الكون -كما قلنا سابقاً- ... ولا يمكن أن نستثني شيئاً في هذا الكون من قانون العلية ، ونتائج هذا القانون دائماً نتائج حتمية لا يمكن أن تتخلف عن أسبابها وظروفها ، وهذه النتائج تعم كل الحالات المشابهة وتتكرر كلما تكررت الاسباب والظروف المؤدية الى وجودها ... ومعنى ذلك أن كل أصول قانون العلية من «الحتمية والتعميم والمسانخة» تجري في الحقل الحضاري والتاريخي كما تجري في حقول المادة. والظاهرة الحضارية لا تختلف عن الظاهرة المادية في أنها تخضع لنفس القوانين والاصول التي تخضع لها الظاهرة المادية ، فإن قانون العلية لا يقبل استثناء ولا يمكن أن تحدث ثغرة أو خلل في تطبيق هذا القانون في المجتمع أو في غير المجتمع من هذا الكون.

فالحياة الاجتماعية والتاريخ -إذن- يسيران بموجب نظام وقانون دقيق وبنفس الدقة التي تجري قانون العلية في الفيزياء.

والأحداث الاجتماعية الكبيرة والصغيرة والانقلابات والثورات والركود والحركة والفشل والنجاح والنصر والهزيمة والثقافة والجهل والغنى والفقر والقوة والضعف والهلاك والسقوط وولادة الحضارات ونموها وغير ذلك من مظاهر الحركة الاجتماعية لا تحدث بصورة عفوية كما تتصور-ذلك-بعض المذاهب التاريخية .

وإنما يجري ذلك كله بموجب قوانين وسنن إلهية ثابتة، كما أن الحاضر ليس مفصولاً عن الماضي وإنما هو نتيجة حتمية للماضي ولا يمكن تفكيك أجزاء الحضارة البشرية الواقعة على إمتداد الزمان بعضها عن بعض، فكل جزء يرتبط بالجزء الذي قبله وبعده إرتباطاً قوياً، وكل جزء حصيلة الأجزاء السابقة ومادة للأجزاء اللاحقة ... وهكذا ... فإن الحضارات البشرية على إمتداد التاريخ ليست قطعاً وشرائح حضارية متقطعة ومتفككة، وليست الشرائح المعاصرة غريبة عن الشرائح السابقة كما ليست الشرائح الحضارية المقبلة مفصولة عن الشريحة الحاضرة والشرائح الماضية.

وهذه الشرائح والمقاطع الحضارية الممتدة على إمتداد التاريخ مرتبطة ببعض بقانون العلية، وكما لا يمكن أن يحدث شيء بصورة عفوية في حقول الفيزياء والكيمياء والميكانيك، كذلك لا يمكن أن يحدث حدث إجتماعي أو سياسي أو إقتصادي بصورة عفوية وإنما يحدث ذلك جميعاً بموجب سنن وقوانين ثابتة تماماً كما يحدث في حقول المادة.

التأثيرات السّطحيّة والعموديّة على الشّريحة الحضارية:

ولنأخذ شريحة من شرائح الحضارة الإنسانية للدراسة ... نجد أن هناك نوعين من التأثيرات على هذه الشريحة تتقوّم بهما:

النوع الأول: التأثيرات المتقابلة «السطحية» بين أجزاء وعناصر هذه الشريحة الحضارية في مقطع زماني واحد، فالمدرسة -مثلاً- لها تأثير متقابل على المدرسة في شريحة حضارية واحدة، وهذه التأثيرات المتقابلة والتفاعلات القائمة بين أجزاء وعناصر الشريحة الحضارية الواحدة لها دور في بناء وصياغة هذه الشريحة الحضارية.

والنوع الثاني: التأثيرات «العميقة» و«العمودية» على الامتداد التاريخي البعيد والقريب على هذه الشريحة الحضارية ... وهذا النوع من التأثير يتقوم به بسلسلة من

العلل والاسباب والمؤثرات المختلفة التي كان لها الدور في بناء وصياغة هذه الشريحة الحضارية على الامتداد الطويل من التاريخ ... وهذه العوامل والمؤثرات الممتدة على عمود الزمان والتي تساهم في فواصل زمانية مختلفة في بناء وصياغة هذه الشريحة الحضارية ... هي «التاريخ».

فأيّة شريحة حضارية -إذن- لا تتكون بصورة عفوية منفصلة عن العوامل والمؤثرات المقارنة والعوامل والمؤثرات التاريخية ولا يمكن فهمها بمعزل عن هذين النوعين من المؤثرات.

والمجتمع البشري كأي شيء آخر من هذا الكون يخضع لقانون العلية «الاسباب والمسببات» بكل تفاصيل هذا القانون.

وقانون العلية «الاسباب والمسببات» يجري في الحقل الاجتماعي والحضاري كما يجري في حقل الفيزياء والميكانيك[1] في هذا الكون.

القرآن يفتح أفقاً فكرياً جديداً أمام العلم:

وهذا الفهم للمجتمع وللحضارة شيء جديد في تاريخ الفكر الإنساني ... والقرآن الكريم كما سوف نرى أول كتاب يفتح هذا الأفق الفكري الجديد أمام العلماء.

وفي تاريخ الفكر الاسلامي نلتقي لأول مرة هذا اللون من الفهم العلمي للمجتمع والحضارة ... ونعرف أن الحضارة البشرية تخضع لسلسلة من العلل والقوانين وتتبع قوانين وأصولاً يسميها القرآن الكريم بـ«السّنن الإلهيّة» ونعرف أن هذه ثابتة لا تتبدل في حياة الانسان «ولن تجد لسنة الله تبديلاً»، ونستطيع أن نقول إن أول من استطاع أن يستخرج جملة من هذه السنن ويخضعها لدراسة علمية منظمة من علماء المسلمين هو عبد الرحمن بن خلدون المؤرّخ والمفكر الأفريقي المغربي

(١) مع فارق نذكره قريباً.

المعروف فقد استطاع ابن خلدون أن يتجاوز السطحية التي كانت تتصف بها الدراسات التاريخية والحضارية من قبل واستطاع أن يكتشف الأصول والقوانين التي تتبعها الحضارة والمجتمع أو كما يقول هو «العمران البشري» واستطاع أن يكشف أن «العمران البشري» ليس بدعاً من الأشياء في هذا الكون، وإنما هو أيضاً كأي شيء آخر يخضع لقانون العلية: «الاسباب والمسببات» وبغير هذه الصورة لا نستطيع أن نفهم المجتمع والحضارة الإنسانية.

السّنن الإلهيّة:

يشير القرآن الكريم بشكل خاص الى هذه المسألة ويؤكد بأن الحضارة الانسانية في ولادتها ونموها ونضجها وضعفها وانتكاسها وسقوطها وموتها تتبع قوانين وسنناً إلهية ثابتة.

ويؤكد بأن أمثال هذه الاحداث لا تحدث بصورة عفوية وإنما تحدث بموجب سنن وقوانين وان هذه السنن هذ من الله تعالى وانها سنن ثابتة لا تتبدل ولا تتغير.

وينظر إليها القرآن نظرة أوسع وأشمل من النظرة المادية التي ينظر بها أصحاب التوجهات المادية التاريخية.

حتميّة السّنن التاريخيّة:

والسنة كما يقول الراغب[1] «الطريقة» «وسنة الله» طريقة حكمته» فهي القوانين والأصول الإلهية التي تجري عليه مشيئة الله تعالى في خلقه. هذه القوانين حتمية لا تتبدل. والقرآن الكريم يعبر عن هذه الحتمية بطرق مختلفة كقوله تعالى: **﴿قُل للّذين كَفروا إن يَنتهوا يُغفَر لَهم ما قد سلف وإن يَعودوا فقد مَضت سُنّتُ الأولينَ﴾**. (الأنفال: ٣٨)

(١) مفردات الرّاغب: ٢٤٥.

هكذا سنة ماضية وقانون نافذ، لا يتخلف ولا يسلم منه أحد. يقول البيضاوي في تفسيرهذه الآية الكريمة: «وإن يعودوا الى قتاله(رسول الله) فقد مضت سنة الأولين الذين تحربوا على الأنبياء بالتدمير كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك».[1]

ويقول تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قد أرسَلنا قبلَكَ من رُسلِنا ولا تَجِدُ لسُنّتِنا تَحويلاً﴾. (الأحزاب: ٣٨)

هكذا قدر مقدور لا مفر منه، كما جرت هذه السنة الإلهية في الذين خلوا من قبل.

﴿ولا يَحيقُ المكرُ السّيّئ إلاّ بأهله فهل يَنظُرون إلاّ سنّتَ الأوّلينَ فلن تَجِد لسُنّتِ اللّه تبديلاً ولن تَجِدَ لسُنّت اللّه تَحويلاً﴾. (الفاطر: ٤٣)

فسوف لا تحل بهم إلا سنة الله في الأولين وهي سنة ثابتة لا سبيل الى تبديلها وتحويلها.

الرّؤية التّوحيدية لسنن الله:

والقرآن الكريم ينظر الى هذه السنن والقوانين والأصول الثابتة في حركة التاريخ من خلال نظرية الشمولية في«التوحيد»وينسب هذه السنن الى الله تعالى جميعاً، وينفي أن تكون هذه السنن تجري بمعزل عن مشيئة الله أو خارجة عن إرادة الله تعالى.

لاحظ الآيات ١٧/ ٧٧ و٣٣/ ٣٨ و٣٣/ ٦٢ و٣٥/ ٤٣ و٤٠/ ٨٥ و٤٨/ ٢٣ و١٧/ ٧٧.

وهذه هي الميزة الأولى للرؤية الإسلامية الى السنن والقوانين عن الرؤية المادية.

(١) تفسير البيضاوي: ٢٤٠.

علاقة الجزاء بالعمل في سنن الله :

وهذه السنن تشتمل على نوع من العلاقات بين العمل والجزاء لا تخضع للحسابات المادية فإن التصور المادي لقانون العلية في التاريخ وللعلاقة السببية بين مسلسل الأحداث في التاريخ لا يزيد على تصور العلاقة المحسوسة بين الأحداث كالعلاقة بين العرض والطلب في السوق وبين أسعار البضائع .

وأما علاقة الجزاء بالعمل فهو من العلاقة السببية غير المحسوسة وغير المفهومة بالرؤية المادية للتاريخ . والقرآن الكريم يلفت نظرنا الى هذا النوع من العلاقة والإرتباط في التاريخ .

﴿**ولا يَحيقُ المكر السّيئ إلاّ بأهله فهل ينظُرون إلاّ سُنّتَ الأوّلين**﴾ . (فاطر : ٤٣)

﴿**واتّقوا فتنةً لا تصيبَنّ الّذين ظَلموا منكم خاصّةً واعلموا أنّ اللّه شديدُ العقابِ**﴾ . (الأنفال : ٢٥)

﴿**أولم يَسيروا في الأرضِ فيَنظروا كيف كان عاقبةُ الّذين من قَبلهم وكانوا أشَدّ منهُم قوّةً**﴾ . (فاطر : ٤٤)

﴿**ولو قٰتَلَكم الّذين كفروا لَوَلّوُا الأدبٰرَ ثمّ لا يَجدون وليّاً ولا نصيراً*سنّةَ اللّه الّتي قد خلت من قبلُ ولن تجد لسُنّة اللّهِ تبديلاً**﴾ . (الفتح : ٢٢-٢٣)

﴿**ولا تَهنوا ولا تَحزَنوا وأنتم الأعلونَ إن كُنتم مؤمنينَ**﴾ . (آل عمران : ١٣٩)

﴿**فتِلكَ بيوتُهم خاوية بما ظَلموا إنّ في ذلك لآيَةً لقومٍ يعلمونَ**﴾ . (النمل : ٥٢)

﴿**إنّا مُنزِلونَ على أهلِ هذه القريةِ رِجزاً من السّماءِ بما كانوا يفسُقونَ**﴾ . (العنكبوت : ٣٤)

﴿**ولَو أنّ أهلَ القُرى ءَامنوا واتّقَوا لَفَتحنا عليهم بركٰتٍ من السّماءِ والأرضِ ولكن كَذّبوا فأخَذنٰهُم بما كانوا يكسِبونَ**﴾ . (الأعراف : ٩٦)

﴿**ومن يتّقِ اللّهَ يَجعَل له مَخرَجاً**﴾ . (الطلاق : ٢)

﴿**ومن يتّقِ اللّهَ يَجعَل له من أمره يُسراً**﴾ . (الطلاق : ٤)

هذه العلاقة الحتمية وغير المرئية بين الفعل والجزاء مما يخفى على الذهنية

المادية، والقرآن الكريم يسلط الضوء على هذا النوع من العلائق بين الفعل والجزاء ويصفها بصفة الحتمية التي لا سبيل الى تبديلها وتحويلها.

سنن الله في التاريخ مرآة لحاضر الإنسان ومستقبله:

ثم يلفت القرآن نظر الإنسان الى هذه السنن الإلهية الثابتة في التاريخ ليتخذ منها مرآة ينظر من خلالها الى نفسه وحياته وعصره.

إن التاريخ عندما يكون شتاتاً من الأحداث المتفرقة التي تتجمع وتتفرق بصورة إعتباطية، ومن دون قانون وسنّة ... تفقد الشفافية التي تمكن الإنسان أن ينظر من خلالها الى نفسه وعصره وأمته، ولكن عندما يكون التاريخ مجموعة من السنن والقوانين الثابتة فإن بإمكان الانسان أن ينظر من خلال مرآة التاريخ الى نفسه وعصره، ويقوم من خلال هذه المرآة نفسه ومجتمعه.

إن سرد التاريخ في القرآن الكريم يتم من خلال تكريس الأصول والقوانين الثابتة في حركة التاريخ.

القرآن يعرض من هذه الصورة المقننة من التاريخ ليجعل منها مرآة للناس أن ينظروا الى أنفسهم وعصرهم من خلالها؛ ثم يؤكد بصورة متكررة الدعوة الى النظر الى هذه المرآة والإتعاظ والعبرة وأن يعدل الإنسان سلوكه وعمله من خلال النظر الى هذه المرآة.

ولنقرأ هذه الآيات المباركات في مواضع مختلفة من كتاب الله:

﴿أفلم يَسيروا فى الأرضِ فيَنظُروا كَيف كانَ عـٰقِبةُ الّذين مِن قَبلِهم دَمّرَ اللّهُ عليهم ولِلكـٰفرينَ أمثـٰلُها﴾. (محمد: ١٠)

﴿ويَستعجِلونَك بالسّيّئةِ قبلَ الحَسَنةِ وقد خَلت من قبلهمُ المَثُلـٰتُ﴾. (الرّعد: ٦)

﴿فتِلك بيوتُهم خاويةً بما ظلموا إنّ في ذلك لآيةً لقومٍ يَعلمونَ﴾. (النمل: ٥٢)

فالخطاب هنا للأمة وليس للفرد، والسنن والقوانين التي تذكرها هذه الآيات

سنن جارية في حياة الأمم والجماعات.

﴿وإن أسَأتم فلهـا فإذا جاءَ وعدُ الآخـرةِ ليَسوءُوا وجوهكم وليـدخلوا المسجدَ كما دخلوه أول مـرّة وليتبّروا ما علوا تتبيراً * عسىٰ ربّكم أن يرحمكم وإن عدتـم عدنا وجعلنا جهنّمَ للكٰفرينَ حصيراً﴾ . (الإسراء: ٤-٨)

وهذه الآيات المباركات جديرة بالكثير من التأمل لفهم سنن الله تعالى في حياة الإنسان.

فالخطاب هنـا للأمة وليس للفرد، والسنن والقـوانين التي تذكرهـا هذه الآيات سنن جارية في حياة الأمم والجماعات.

ولنتأمّل مرة ثانية في هذه الفقرات من آيات الله:

﴿وقضينا إلى بَنـي إسراءيل فى الكتـٰب لَتُفسِدُنّ في الأرض مرّتيـن ولَتَعلُنّ عُلوّاً كبيراً﴾ . (الإسراء: ٤)

بعد كل فساد واستكبار ينذرهم الله بعذاب وخراب.

«فإذا جاء وعد أولاهما» بعد الفساد والاستكبار الأول «بَعثنا عَليكُم عِباداً لنا أُولِي بأسٍ شديـد» وسلط الله علهم رجالاً أشداء ليقتلـوهم وليأسروهم ولينفـذوا الى داخل بيوتهم وليذلوهم في عقر دورهم.

ثم تؤكد الآية الكريمة بشكل حاسـم أن هذه النتيجة مصير حتمي لبني إسرائيل ووعد قـاطع نـافذ لله تعـالى «وكـان وعداً مفعولاً» لا يتخلّـف ولا يتغير، والقـرآن هنا يحدثنا عن أعمق قوانين وسنن الله تعالى في الكون والمجتمع.

ثم إذا ندم بنو إسرائيل وتابوا الى الله تعالى أعاد الله تعالى إليهم رحمته وبركاته ومكنهم من أعدائهـم ونصرهم عليهم، وأمدهم بالأموال والبنيـن ... وهذا قضاء آخر وقانون آخر وسنة أخرى لله تعالى ثابتة أيضاً، لا تتخلف ولا تتبدل.

﴿ثُـمّ رَددنـا لَكُـم الكَـرّةَ عَليهـم وأمددنـٰكُم بـأمـوال وبنيـنَ وجَعلنـٰكُم أكثـرَ نَفيراً﴾ . (الإسراء: ٦)

ثم يأتـي القضاء العام، والقانون والحكم الإلهـي الثابت في بني إسـرائيل وفي

كل الأمم .

﴿إنْ أحسنتُم أحسنتم لأنفسكم و إنْ أسأتم فلها﴾ . (الإسراء : ٧)

«فإذا جاء وعـد الآخرة»وعاد بنو إسرائيـل من جديد، نتيجة التـرف الى الطغيان والإستكبار والإستعـلاء، سلط الله تعـالى عليهم مـن جديـد أعداءهم، ليهلكـوهم وليذلوهم كما فعل بهم أعداؤهم أول مرة .

ثم إذا عدتم الى الله من جديد وتبتـم وأقلعتم عن المعاصي والذنوب فـ«عسى ربكم أن يرحمكم» ... وهذه فقرة أخرى من السنن الإلهية من هذا المقطع القرآني ... ولكن«و إن عـدتم عدنا»إن عـدتم الى الطغيـان والإستعلاء عل وجه الأرض عـاد الله عليهم بالعذاب والتنكيل والإذلال .

أرأيت كيف ينطق القرآن بالسنن الإلهيـة الحاسمة والنافذة والمستمرة ... «و إن عدتم عدنا» .

ولنستمر مع القرآن الكـريم شوطاً آخر من التـأمل في سنن الله تعالـى في حياة الإنسان .

﴿فأصـٰبهم سيّئاتُ ما عَملوا وحاقَ بهم ما كانوا به يَستهزءون﴾ . (النحل : ٣٤)

﴿و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مُترَفيهـا فَفَسقوا فيها فَحقّ عليها القَول فَدمّرنـٰها تـدميراً*وكـم أهلكنـا من القـرون مـن بعد نـوح وكفـى بـربّك بـذنـوب عباده خبيـراً بصيراً﴾ . (الأسراء : ١٦-١٧)

﴿ولو أنّ أهلَ القرىٰ ءَامنوا واتّقَوا لفتحنا عليهم بركـٰت من السّماء والأرض ولكن كذّبوا فأخذنـٰهم بما كانوا يكسبون﴾ . (الأعراف : ٩٦)

﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لمّا ظلموا وجـاءتهم رسلهم بالبيّنـٰت وما كانوا ليؤمنوا كذٰلك نجزى القوم المجرمين﴾ . (يونس : ١٣)

﴿وكذلـك جعلنا فـي كلِّ قريـةٍ أكابـر مجرميها ليمكـروا فيها ومـا يمكرون إلاّ بأنفسهم وما يشعرون﴾ . (الأنعام : ١٢٣)

والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة، وكلها ينطق بهذا الفهم العلمي الدقيق للتاريخ، سنن وقوانين وأصول ثابتة للتاريخ والحياة.

ولا سقط أمّه، ولا يكون مفر ولا هزيمة ولا إنتكاسة، ولا إزدهار ونمو ونضج، إلا بموجب قوانين وسنن إلهية ثابتة.

وهذه السنن كلها لله تعالى أوجدها بمشيئته وحكمته، وهَدى إليها عباده.

أصل وحدة الأمة في القرآن:

في الوقت الذي يقرر القرآن الكريم قدرة الإنسان على الإختيار والإرادة وتقرير المصير بشكل تام ... يقرر القرآن الكريم أصلاً هاماً في حياة الأمم في التاريخ وهو(وحدة شخصية الأمة) وهذه الوحدة في نسيج الأمة والمجتمع تأتي على بعدين:

١- البعد الأفقي.

٢- البعد العمودي.

١- البعد الأفقي: ففي البعد الأفقي لا يمكن أن يعزل الفرد الذي يعيش في مجتمع ما نفسه عن عواقب وتبعات سيئات قومه مهما صلح أمره.

يقول تعالى: ﴿**واتّقوا فتنةً لا تصيبَنّ الّذين ظلموا منكم خاصّةً**﴾. (الأنفال: ٢٥)

وقد ينسب القرآن الكريم عمل فرد واحد من الناس الى الأمة جميعاً، إذا كانت الأمة راضية بذلك العمل.

يقول الأمام علي بن أبي طالب عليه السّلام:

«أيها الناس إنّما يجمع الناس الرضى والسخط، إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب كما عموه بالرضى، فقال سبحانه«فعقروها فأصبحوا نادمين»فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة». (١)

(١) نهج البلاغة: تحقيق د. صبحي صالح، خطبة ٢٠١ ص: ٣١٩.

وكلام الإمام عليه السّلام كلام دقيق، فإن الرضى بالجـريمة في الوسط الاجتماعي نحو مـن المشاركـة في ذلك العمـل، وإن كانـت ممارسـة الجريمة مـن طائفـة من المجتمع ولكـن الآخريـن لما أعلنوا رضـاهم بـالسكوت عنها، كـان سكوتهـم عنها بحكم الإقـرار لها والمشـاركة فيها، وذلـك أن الجرائم الكبيـرة المعلنة تختلـف عن الجرائم الفرديـة التي يرتكبها الناس فـي الخفاء، فإن المجرم لا يتمكن مـن ممارسة الجـرائم الكبيرة أمـام الملأ، ويتحـدى بها مشـاعر الأمـة، لولا أن يـدعمه الآخـرون بالتأييد والرضا والتشجيع.

وعند ذلـك فلا يكون المجرم وحـده يمثل تلك الجـريمة، وإنما يشاركـه فيها الراضون الذين دعموه وأعانوه بالرضا والتأييد، والسكوت.

٢- **البعد العمودي**: ويعتبر القرآن الكـريم الأمة في عمـرها الزمني وإمتـدادها التاريخـي قطعة واحـدة متصلة ومترابطـة، يعتبر الجيـل السابق مـادة وأساسـاً لبناء الجيل الحاضر ويكون الجيل الحاضر حصيلة لعمل الجيل السابق، وينسب القرآن الكريـم عمل الجيـل السابـق، عندمـا يحظى بـرضى الجيـل الحاضـر الى الجيـل الحاضر.

يقول تعالى: **﴿لقد سمع اللّه قولَ الّذين قالوا إنّ اللّه فقير ونحن أغنياء سنكتُب ما قالوا وقَتلَهم الأنبياءَ بغير حقٍّ ونقول ذوقوا عـذاب الحريق*ذٰلك بما قدّمت أيديكم وأنّ اللّه ليس بظلّـم للعبيد*الّـذين قالوا إنّ اللّه عَهِدَ إلينا ألاّ نؤمن لـرسول حتّى يأتينا بقربان تأكله النّـار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبيّنٰـت وبالّـذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صٰـدقين﴾**. (آل عمران: ١٨١-١٨٣)

وهؤلاء الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنيـاء هم من اليهود الذين عاصروا رسول اللـه صلـى الله عليـه وآلـه... واللـه تعـالى ينسـب إليهـم جـرائم آبـائهم فـي قتـل الأنبياء«وقتلهم الأنبياء».

وعندما طلبوا من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يأتيهم بقربان تـأكله النار أمر الله تعالى نبيه صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يحاججهم ويقـول لهـم: «قد جاءكـم رسل من

قبلي بالبينات وبالذي قلتم فَلِمَ قتلتموهـم إن كنتم صادقين»، علماً بأن القوم الذين طلبوا من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يأتيهم بقربان تأكله النار لم يقتلوا نبياً.

ومواخذة الحاضـرين وعتابهم بأعمال أسـلافهم مذكورة في القرآن الكـريم في أكثـر من مـوضع، ولهـذه المـؤاخذة والعتـاب رغم أنهـم لـم يرتكبـوا شيئاً، مغـزى إجتماعي، نعرفه جيداً، إذا عرفنا أبعـاد التصور الإسلامي للتاريخ والحضارة... فإن هذه المؤاخذة لا تتم إلا عندما يرضى الخلف بفعل السلف ولا يتبرَّأ منه ويدافع عنه، وهذه هي الوشيجة والصلة القائمة بين الأجيال من أمة واحدة والتي تربط الأجيال من أمة واحدة وحضارة واحدة بعضها... ببعض.

فإذا انقطعت هذه الصلة بين الأجيال من أمـة واحدة فإنها ستتحول من أمة الى أمة أخرى، وتنقلب من حضارة الى أخرى، فـلا تكون بين جيل وآخر صلة أو علاقة ولا مسؤولية ولا مؤاخذة ولا عناء.

وما دامـت الأمة والحضـارة قائمة فـإن الحب والبغـض والولاء والبـراء واحد لا يتغير... وولاء الآباء ينتقل الـى الآبناء وبراءة الآباء تنتقل الى الأبنـاء، ومحاسبة الأبناء ومؤاخذتهم على جرائم آبائهم تتم على هذا الأساس.

ثم نلقي نظرة ثانية على حالة وحدة الولاء والبراءة -هذه- بين الأجيال، فترى أن السلف هو المسؤول عن ولاء وبراءة أبنائهم وإنحرافهم وزيفهم وإنتمائهم الى محور الباطل والطاغوت، أو في أن يرفع ذلك مسؤولية الأبناء عن إنتمائهم الى محور الشرك والطاغوت، ودون أن يسلب ذلك حرية إرادة الأبناء في تقرير مصيرهم بشكل مستقل عن الآباء، كمـا سوف نتحدث عن ذلك إن شاء اللـه في العنصر الثاني مـن عناصر النظرية الاسلامية في التاريخ... فـإن الآباء لا شك يمهدون أرضية خصبة للإنحراف والشرك والفســاد للجيل اللاحق ويغـذون الجيل الذي يأتـي من بعدهم بشكـل غير مرئي بالفكر والحضارة الجاهلية وينقلون فكرهم وأخلاقهم وأعرافهم وتصوراتهم الى الجيل الذي يأتي من بعدهم، وهذا هو البعد غير المرئي للحضارة.

ونلاحـظ بشكل أكثـر وضوحاً هـذا التصور القـرآني للتاريـخ، والصلة الـوثيقة

القائمة بين الأجيال من أمة واحدة وحضارة واحدة في دعاء نوح عليه السّلام بهلاك قومه ﴿**وقال نوح ربّ لا تذر على الأرض من الكـٰفرين ديّاراً*إنّك إن تذرهم يُضلّوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً**﴾ . (نوح : ٢٦-٢٧)

فالجيل الذي تمرد على الله تعالى ورسوله من قوم نوح لا يلدون إلا فاجراً وكفاراً، وهذه الحضارة والأمة الجاهلية لا تغذي من بعدها من الأجيال الا الشر والفساد والفجور والكفر.

ولعل الآية الكريمة التالية تلقي ضوءً على هذه الحقيقة : ﴿**والبلد الطّيّب يخرجُ نَباتُه بإذن رَبّه والّذي خَبُثَ لا يَخرجُ إلاّ نكِداً**﴾ . (الأعراف : ٥٨)

وبهذه الصورة نرى أن القرآن الكريم يربط الحاضر بالماضي والماضي بالحاضر من أمة واحدة في المسؤولية والمحاسبة والمؤاخذة فالجيل الحاضر مسؤول عن سلفه والسلف مسؤول عن الخلف .

وهذه الآيات المباركات تكشف الى حد بعيد أبعاد التصور الإسلامي في النسيج الاجتماعي والتاريخي المترابط للأمة الواحدة وحكومة قانون العليّة في التاريخ والمجتمع، وتأثير كل جيل في الأجيال التي تليه في الخير والشر.

٢- حرية الأرادة :

العنصر الثاني من عناصر المذهب التاريخي في الاسلام حرية إرادة الانسان .

والتاريخ وإن كان يتحرك بموجب قانون العلية حركة حتمية ، لكن الانسان -بما آتاه الله من القدرة على الاختيار والارادة- يمسك بيده ناصية التاريخ ، ويحرك التاريخ ، فتخضع حركة التاريخ لإختيار الانسان وإرادة الانسان .

من دون أن ينتقض قانون العلية أو تختل حتمية هذا القانون .

إن الطائرة تطير في الجو والباخرة تجري في البحر بموجب قوانين الميكانيك والفيزياء الحتمية وبموجب سلسلة من الاسباب والعلل التي تخضع لقانون العلية وأحوال هذا القانون بشكل دقيق ... ولكن الطيار والربان يتحكمان أيضاً وبصورة دقيقة في مسير وحركة الطائرة والباخرة ... وليس معنى ذلك أن يختل قانون العلية أو يعطل أصل الحتمية في قانون العلية ، وإنما الانسان يقع في سلسلة المصادر والأسباب التي تحرك التاريخ ، فيحرك الانسان عجلة التاريخ ضمن قانون العلية بالطريقة التي يريدها .

العلاقة بين حرّيّة الإرادة وحتمية القانون :

وهذه العلاقة بين حرية إرادة الانسان وحتمية قانون العلية والتداخل الذي يقع فيما بين هذين الأمرين في الحضارة والمجتمع والتاريخ أدى في تاريخ الفكر الانساني الى تعقيدات فكرية وتصورية كثيرة ، وظهور مذاهب متطرفة في الفلسفة .

والقرآن الكريم يصور هذه العلاقة بصورة دقيقة ويربط أحدهما بالآخر ربطاً محكماً ولا ينفي أيّاً منهما على حساب الآخر، فيقر بهذا وذاك ، ويعطي المحصلة الناتجة منهما بشكل دقيق .

ففي الوقت الـذي يعترف القرآن للانسان بحرية إرادته و إختيـاره، يربطه بنتائج إختياره ربطاً حتمياً ويحملـه مسؤولية إرادته وإختياره. فهو عنصر حر وفـاعل ومؤثر في مجـرى التاريخ، إلا أنـه رغم ذلك كله لا يستطيـع أن ينفلت من قبضـة الحتمية العلية، وبالتالي لا يستطيع أن ينفلت من نتائج وآثار فعله.

إنه يستطيع أن يحقق ما يريد، ولكن في دائرة الحتمية العلية، ودون أن يستطيع أن يتخلص من نتائج إختياره و إرادته.

إن للانسـان حريـة كاملة فـي أن يختار السُـمّ أو الغذاء، ولكنـه لا يستطيع أن يتخلص مـن النتائج الحتمية المتـرتبة على كـل منهما، عنـدما يختار أيّـا منهما... وبالتـالي فهو، بـاعتبار النتائج التـي ينتهي إليها، يخضـع للحتمية العلية وبـاعتبار المباديء التي ينطلق منها ينطلق من إرادة حرة، مستقلة غير خاضعة لأية حتمية.

ولربما نجد في الحديث التالي بعض الأضواء على هذه الحقيقة:

روي أن أمير المومنين عليه السّلام عدل من عند حائط مـائل الى مكان آخر، فقيل له: يا أمير المؤمنين! تفـر من قضاء الله؟ فقال عليه السّلام «أفر من قضاء الله الى قدر الله». (١)

فإن للانسان أن يختار أيّاً منهما بـاختياره و إرادته فيجلس تحت الحائط المائل أو يغير مكانه الى نقطة أخرى بعيدة عـن الخطر. ولكن اذا اختار الجلوس في النقطة الأولى فإن وقوعه تحت الخطر نتيجة حتمية لا يمكن أن يتخلص منها.

فلله -تعـالى- فـي الحقيقة قضـاءان حتميان، لـلإنسان أن يختـار أيّاً منهمـا بإرادته و إختياره، الخطر والسلامة، فاذا اختـار الأول كان الوقوع تحت الخطر نتيجة حتمية لفعله و إذا اختار النقطـة الثانية كان خلاصه من الخطر وسـلامته نتيجة حتمية أيضـاً، من دون أن تعـارض هـذه الحتمية قـدرة الانسان علـى الاختيـار. وهذا هـو

(١) بحار الأنوار: ٥/ ٩٧و١١٤ من نفس الجزء.

بالضبط ما يجري في تعامل الانسان مع المجتمع والتاريخ .

حريّة الإختيار الى جانب حتمية النتائج :

والى هذه الحقيقة المزدوجة تشير آيات كتاب الله إشارات واضحة .

فمن ناحية يقرر القرآن الكريم حريّة إرادة الانسان بصورة قوية وواضحة ومن دون أي تحفظ ، ومن ناحية أخرى يقرر القرآن حتمية النتائج التي تترتب على اختيار الانسان وحريته ، ومسؤولية الانسان عن أفعاله و إختياراته .

وفيما يلي نشير الى هذه الحقيقة القرآنية المزدوجة من طائفتين من الآيات :

الطائفة الأولى ، هي التي تقرر حرية إرادة الانسان والطائفة الثانية هي التي تقرر حتمية نتائج هذه الاختيار ومسؤولية الانسان عنها .

الطائفة الأولى :

وهي طائفة واسعة من الآيات نذكر منها قوله تعالى :

﴿إنّا هدينٰهُ السَّبيل إمّا شاكِراً وإمّا كَفوراً﴾ . (الانسان : ٣)

﴿بِئْسَما اشترَوا به أنفُسَهم﴾ . (البقرة : ٩٠)

﴿إنّ اللّهَ لا يَظلِم النّاسَ شيئاً ولكنّ النّاسَ أنفُسَهُم يَظلِمون﴾ . (يونس : ٤٤)

﴿قُل يٰأيّها النّاسُ قد جاءَكُم الحقّ من رَبِّكم فَمن اهتَدىٰ فإنّما يَهتَدي لِنَفسه وَمَنْ ضَلَّ فإنّما يَضلُّ عَليها﴾ . (يونس : ١٠٨)

﴿وَمَنْ يُردْ ثوابَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنها وَمَنْ يُرِدْ ثوابَ الآخرةِ نُؤْتِهِ منها﴾ . (آل عمران : ١٤٥)

﴿مَنْ كانَ يُريدُ ثوابَ الدُّنيا فَعِنْد اللّه ثوابُ الدُّنيا والآخرة﴾ . (النساء : ١٣٤)

﴿قُلْ كُلّ يَعملُ على شَاكِلَتِهِ فَربّكُم أعلَمُ بمَن هوَ أهدىٰ سبيلاً﴾ . (الاسراء : ٨٤)

﴿فَمَنْ شاءَ اتّخذَ إلىٰ رَبّهِ سبيلاً﴾ . (الانسان : ٢٩)

الطائفة الثانية :

وفي القرآن طائفة أخرى واسعة من الآيات تدل على أن إختيار الانسان هو أساس ومادة تاريخ الانسان، وأن هذا الاختيار إن كان خيراً أو شراً، يصنع بصورة حتمية تاريخ الانسان، ولا يستطيع الانسان أن يتخلص من نتائج عمله وكسبه، ويقع إختيار الانسان وكسبه، وإختيار الامة وكسبها في سلسلة علل وأسباب التاريخ. وتعمل هذه العلل والاسباب عملها بصورة حتمية في حياة الانسان وتاريخه وتستتبع النتائج المترتبة عليها بصورة قطعية وحتمية ... ولكن مباديء هذه الحتمية التاريخية تقع في يد الانسان وتحت إختياره. ولْنقرأ شطراً من هذه الآيات من كتاب الله:

﴿كُلُّ نَفسٍ بما كَسَبت رَهينَة﴾ . (المدثر: ٣٨)

كل نفس رهينة بأعمالها لا تستطيع أن تتخلص من النتائج الحتمية التي يستتبعها عملها وكسبها.

وكسب الانسان وعمله يقع تحت إختياره ولكن النتائج التي يستتبعها عمله وكسبه تقع بصورة حتمية ويكون هو رهيناً بها.

﴿وَتِلك القُرىٰ أهلَكنٰهُم لمّا ظَلَمُوا وَجَعْلنا لِمهْلكِهم موعداً﴾ . (الكهف : ٥٩)

وهلاك الامم والاقوام -والحديث هنا على الأمم وليس عن الأفراد- نتيجة حتمية لظلم الأمم وفسادهم.

﴿فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا به فَتَحْنا عليهم أبوابَ كُلِّ شيءٍ حتّى إذا فَرحُوا بما أُوتوا أخذْنٰهُم بَغتةً فإذا هُمْ مُبْلِسُون*فَقُطِعَ دابِرُ القومِ الّذينَ ظَلَموا والحمدُ للّه رَبِّ العٰلَمين﴾ . (الأنعام: ٤٤-٤٥)

ويبدأ الأمر من هذه المسيرة الحضارية: الانسان حين يعرض عما ذكّره الله به وعن ذكر الله تأتيه سُنّة الاستدراج ويفتح الله عليهم أبواب كل شيء ثم يأتيهم بعد ذلك سُنة المحق والهلاك بصورة حتمية:

﴿ولَو أنَّ أهلَ القُرىٰ ءَامنوا واتّقَوا لَفَتَحْنا عليهم بَركٰتٍ من السّماءِ والأرض ولكِنْ

كَذَّبُوا فأخذنٰهُم بما كانوا يكسبون﴾ . (الأعراف : ٩٦)

﴿وأن ليس للإنسٰن إلاّ ما سعىٰ *وأنّ سعيَه سوف يُرىٰ *ثمَّ يُجزيٰهُ الجزاءَ الأوفىٰ﴾ . (النجم : ٣٩-٤١)

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وهو أعلم بما يفعلون﴾ . (الزمر: ٧٠)

﴿مَن عَمِلَ صٰلحاً مِنْ ذَكَرٍ أو أُنثىٰ وَهوَ مؤمنٌ فَلَنُحْيِينَّه حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِينَّهُم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾ . (النحل : ٩٧)

﴿تلكَ أُمَّةٌ قد خَلَتْ لها ما كسبتْ ولكم ما كسبتُم ولا تُسئلون عَمّا كانوا يعملون﴾ . (البقرة : ١٣٤)

﴿لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها لها ما كسبتْ وعليها ما اكتَسَبتْ﴾ . (البقرة : ٢٨٦)

﴿وَلَوْ أنّهم أقامُوا التّوريٰة والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليهم من رَبِّهم لأكَلُوا مِنْ فوقهم وَمِنْ تَحتِ أرجُلِهم منهم أمّةٌ مُقتصِدةٌ وكثيرٌ منهم ساءَ ما يعملون﴾ . (المائدة : ٦٥-٦٦)

﴿ويٰقَومِ استغفروا رَبّكم ثم تُوبوا إليه يُرسلِ السّماءَ عليكم مدراراً ويزدكُم قُوّةً إلى قوّتكم ولا تتولّوا مجرمين﴾ . (هود : ٥٢)

﴿وَأنْ لوِ استقاموا على الطّريقةِ لأسقينٰهُم ماءً غَدَقاً﴾ . (الجنّ : ١٦)

﴿والّذينَ هاجَرُوا فى اللّهِ مِنْ بعدِ ما ظُلِموا لنبوّئنّهم في الدّنيا حسنَةً وَلأجرُ الآخرةِ أكبرُ لو كانُوا يعلمون﴾ . (النحل :٤١)

أمر بين الأمرين :

وهذه الحالة التي يشرحها القرآن الكريم في هاتين الطائفتين من الآيات تقرر وتوضح معنى النص المعروف الوارد عن أهل البيت عليهم السلام من(الأمر بين الأمرين) في الصراع العقائدي الذي احتدم بين المسلمين في إثبات الحرية لإرادة الانسان أو نفي الحرية عن إرادته. فقد طرح أهل البيت عليهم السلام في هذه

المعركة الفكرية مبدء(الأمر بين الأمرين) في مقابل النظريات الفكرية المتطرفة التي تبناها كل من طرفي الصراع في الحرية المطلقة لإرادة الانسان أو نفي الحرية عن إرادة الانسان بشكل مطلق.

ولعل الآيتين الكريمتين تشيران الى هذه الحقيقة.

﴿ذلكَ بأنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغيّراً نعمةً أنعمها علىٰ قومٍ حتّىٰ يغيّروا ما بأنفسهم﴾. (الأنفال: ٥٣)

﴿إنَّ اللّهَ لا يُغيّرُ ما بقومٍ حتّىٰ يُغيّروا ما بأنفسِهم﴾. (الرعد: ١١)

وفي هاتين الآيتين يوجد تغييران إثنان:

١- تغيير الانسان لنفسه.

٢- تغيير اللّه تعالى للانسان، وهذا التغير الثاني يجري بموجب السُّنن والقوانين الإلهية الحتمية وينسبها القرآن الكريم الى الله تعالى بصورة مباشرة على طريقة القرآن التوحيدية من إسناد الكون الى الله عز شأنه.

والتغيير الثاني يتبع التغيير الأول، فكيفما يصنع الانسان بنفسه من تغيير يصنع الله تعالى به بموجب القوانين والسنن الإلهية الحتمية.

إن للإنسان مليء الحرية أن يختار هذا الطريق أو ذاك، ولكنه اذا اختار أحدهما فلا يملك التخلص من النتائج الحتمية المترتبة عليه.

الخلاصة والنتيجة:

إن القرآن الكريم يقرر العلاقة بين هذه الحرية وتلك الحتمية بصورة رائعة ودقيقة ومتينة ويأخذ بنظر الاعتبار كلاً من العاملين الاساسيين في حركة التاريخ ويربط بينهما ربطاً علمياً في غاية الدقة والمتانة.

فليس التاريخ -وهنا النظرية- حركة منفلتة من قانون العلية وأصوله الذي ينظم الكون كله وليس التاريخ بدعاً من الأمور والأشياء، التي تخضع للحتمية العلية كما يقول أصحاب نظرية(التاريخية)«Historicism».

وفي نفس الوقت لا تكاد تشبه قوانين التـاريخ القوانين الفيزياوية، ولا الحتمية التاريخية الحتمية الفيزياوية. ونحن عندما نؤمن بالحتمية التاريخية لا نريد أن نكرر ما يقوله أصحاب نظريات الحتمية التاريخيـة في إلغاء دور الانسان الفاعل في تغيير مسار التاريخ، وإعطاء مسار دوري ثابت لتاريخ الانسان... إن النظريات التاريخية المعروفة بالاتجاه الجبري في التاريخ تكـاد تلغي الدور التغييري الفاعل للانسان في حركة التـاريخ، وتعتبر الانسان جـزء صغيراً جامداً فـي عملية التاريخ الكبـرى التي تتحرك بقانون العليـة والأمر ليس كذلك، وحركـة التاريخ لا تشبه الحركة الفيـزياوية الدائرية في الكون، واذا جاز لنا أن نرسم المسار الكلي لحركة التاريخ فلابد أن نقول إن حركة التاريخ حـركة متعرجة صاعدة ونازلة وليست دائريـة ولا يمكن التنبّؤ الدقيق بها إلا بموجب القانون الكلي الذي يعطيه القرآن الكريم لهذه الحركة.

﴿إنَّ اللّهَ لا يُغيّر ما بقومٍ حتّى يُغيّروا ما بأنفسهم﴾. (الرعد: ١١)

كيف يخترق الانسان قهر البيئة؟

وقد يقـال إن(إرادة الانسان) تقـع مقهورة للمحيـط وللمجتمع. عنـدما يكـون ضغط المحيط قاهراً على الانسان فـلا يستطيع أن يغير أو يبدل شيئاً من المجتمع، ولن يكون دوره دوراً تغييراً فاعلاً في المجتمع...

وعلى ذلك فـإن الفرد لا يكاد يملك حـرية التحرك واتخاذ القـرار بغير الاتجاه العام الذي يتحرك فيه المجتمع.

وتكون النتيجة على كل حال حتمية حركـة التاريخ، وحتمية التبعية للفرد تجاه المجتمع.

والقرآن الكريـم يوضح هذه النقطة بـدقة واهتمام، ويبيّن أن الله -تعـالى- قد زود الانسان، الى جانب الإرادة والقدرة على إتخـاذ القرار، بالعقل والبصيرة والفطرة التي تمكنه من التشخيص السليم والتميز الدقيق.

وتبعية الفرد للمجتمع الفاسد تقع نتيجـة فقدان الوعي والقدرة على التشخيص

عند الفرد... أما حينما يمتلك الفرد الوعي الكافي والقدرة الكافية على التشخيص فإن إرادة الانسان تكون قادرة على التخلص من الظروف الاجتماعية مهما كان سلطانها وقوتها.

ويشير القرآن الى منابع الوعي والفطرة والهداية الإلهية للإنسان في داخل نفسه وفي الخارج.

﴿فَأَقِم وَجْهَكَ للدّينِ حنيفاً فِطرَتَ اللّهِ الّتي فَطرَ النّاسَ عَليها لا تبديلَ لِخلقِ اللّه ذٰلك الدّينُ القيّمُ ولكنَّ أكثر النّاسِ لا يعلمون﴾ . (الروم : ٣٠)

﴿إنّا هَدَينٰهُ السّبيلَ إمّا شاكراً وإمّا كَفوراً﴾ . (الانسان : ٣)

﴿وَهَدَينٰهُ النّجْدَين﴾ . (البلد : ١٠)

﴿لا إكراهَ في الدّين قد تَبيّنَ الرّشدُ من الغَيّ﴾ . (البقرة : ٢٥٦)

وعليه فإن الله تعالى قد خلق للانسان نوراً يمكنه من التشخيص والتميز. وخلق له إرادة تمكنه من إتخاذ القرار، فلا يكون الفرد عنصراً جامداً ومقهوراً للمحيط الاجتماعي في حركة التاريخ.

٣- الرعاية الإلهية... وهو العامل الثالث لحركة التاريخ:

ولا تحسبنّ عجلة التاريخ قادرة على الاستمرار في العمل لولا الرعاية الإلهية. ولا يمكن أن يستقر التاريخ على أساس (الحتمية العلية) و(العنصر الانساني) فقط... وما أكثر ما أشرفت الحضارة الانسانية على السقوط والإنهيار الكامل لولا أنْ تتداركها (الرعاية الإلهية) في الوقت المناسب.

والرعاية الإلهية هنا شيء آخر غير السُّنن الإلهية في التاريخ... إنها شيء ما فوق هذه السنن الحتمية، ولها أيضاً أصول وقوانين، ولا تحصل إعتباطاً، إلا أنها من دائرة أُخرى غير دائرة السنن المعروفة.

ولولا هذه الرعاية الإلهية التي تواكب حركة التاريخ لسقطت الحضارة البشرية منذ عهدطويل... ونحن عندما نتابع حركة التاريخ نشهد يد الله-تعالى-ورعايته

للانسان تواكب هذه المسيرة التاريخية ولم تتخل عن رعاية الانسان والمحافظة عليه وحمايته من السقوط طرفة عين ... وكم مـن مرة شهد التاريخ سقوطاً حتمياً لحضارة الانسان على يـد طغاة مجرمين من أمثـال جنكيز وهولاكو وهتلر-علـى صعيد واسع جداً-لولا أن تدرك الرعاية الإلهية الانسانية في الوقت المناسب وتنقذها من السقوط الحتمي، وكم من مرة يجرف الهوى والفساد والفوضى البشرية الى حضيض السقوط لـولا أن تدرك الـرعايـة الإلهية الانسـانية فـي اللحظة الأخيـرة وتنقذهـا من السقـوط والهلاك، مـن دون أن تكون السنن الحتميـة للتاريخ ووعـي الانسان وإرادته وحـرية قراره كافية في خلاص الانسان وإنقاذه.

إن الحقيقة التي تكمن وراء ذلك كله أن حضارة الانسان لا يمكن أن تقوم على دعامتين فقط: (الانسانقوانين التاريخ)، ومن دون وجـود هذه الدعامة الثالثة(الرعاية الإلهية) تبقى الحضارة الانسانية متأرجحة وقلقة ومعرضة للسقوط والانهيار.

ولو لم تكن لدينا شواهد وأمثلة ونماذج من خلال إستعراض التاريخ الانساني للرعاية الإلهية لكنا نحكم بحتمية وجود هذه الدعامة الثالثة للحضارة والمجتمع نظراً لاستمرار الحضارة البشريـة وخروجها من المآزق والمهالك الكثيرة التـي تعرضت لها هذه الحضارة في تـاريخها الطويل ... ولا نحتاج الى دليل أكثـر من ذلك لاكتشاف هذا العنصر الثالث في تقويم الحضارة والتاريخ.

ومن عجـب أن هذا العنصر الثـالث البالغ الأهميـة يختفي بشكل عجيـب في الدراسات العلمية التي تتناول تفسير التاريخ والحضارة الانسانية، ويغيب عن عيون الكثيريـن من الباحثيـن والعلماء، في هـذا الحقل الحسـاس من حقول الـدراسات الانسانية.

ولا يحتاج الانسـان الى كثير مـن العناء ليكتشف هـذا الأصل الكبير والعـامل الاسـاس في تقـويم الحضـارة والتاريـخ. وبقليل مـن التأمـل و(التبصرة) يستطيـع الانسان أن يلمس هذا الأصل في التاريخ والحضارة بشكل واضح.

رعاية اللّه في حياة الانسان الشخصية

ولنبدأ من إلتماس هذه الرعاية الإلهية في حياة الناس الشخصية حيث يعلم كل واحد منا تدخل الرعاية الإلهية في حياته الشخصية خارج دائرة الحتميات العلية وإرادته وعقله وتجاربه، ويلمس عن قرب أنه لولا أن تتدخل الرعاية الإلهية في حياته الشخصية لما نهض به عقله وإرادته وتجاربه وقوانين الطبيعة والمجتمع، ولو أن الله تعالى يكل الانسان الى نفسه لسقط في لحظة واحدة أمام أول مزلق من مزالق الحياة الكثيرة... ولكن رعاية الله تتابع الانسان في حياته خطوة فخطوة، وتحفه بالحفظ والتوفيق والتسديد والتأييد -بصورة غيبية- منها ما يشعر بها بصورة محسوسة وملموسة، ومنها مالا يشعر بها بصورة محسوسة وهي الألطاف الخفية لله تعالى التي ترعى الانسان من دون أن يحس بها، وهي كثيرة ومتنوعة، اذا كانت تخفى واحدة واحدة فلا تخفى على الانسان في إجمالها وكليتها.

وهذه الرعاية الإلهية تواكب الانسان في مسيرة حياته عند كل مزلق من مزالق الحياة، وعلى كل شفير يشرف الانسان عنده على السقوط، وكلما تتشابك أمامه الطرق ويلتبس عليه الحق والباطل... ولو أن الله -تعالى- يكل الانسان الى نفسه وعقله وإرادته وتجاربه لما نهض به عقله وتجاربه بالتأكيد.

ولذلك ورد في الأدعية كثيراً هذه الفقرة: «ولا تكلني الى نفسي طرفة عين».

وورد في الصحيفة السجادية«ولو تكلني الى حولي... لكان الحول عني معتزلاً»

إن حول الانسان وطوله وعقله وإرادته -وكل ذلك مما آتاه الله تعالى وكل قوانين الطبيعة والمجتمع، وكله من خلق الله- لا ينهض بالانسان اذا تخلت عنه رعاية الله الخاصة، وأوكلته الى نفسه.

ستر اللّه

وليس ذلك فقط على الصعيد المعنوي... بل يصح أيضاً على الصعيد المادي والمحسوس، فما أكثر ما يتعرض الانسان لأخطار مادية في جسمه فتدركه رعاية الله تعالى وتنقذه، وما أكثر ما يدرأ الله تعالى عن الانسان الأخطار الحقيقية من حيث

يشعر الانسان أو لا يشعر.

وهذه الشواهد الملموسة كلها تدعونا الى الإيمان بوجود عنصر ثالث في حياة الانسان غير القوانين الطبيعية والاجتماعية والعقل والإرادة والتجربة وهذا العنصر الثالث هو رعاية الله تعالى الخاصة بعباده.

التوفيق الإلهي

وقد ورد التعبير عن هذا العنصر الثالث في النصوص الاسلامية و(التوفيق)، كما يقول أمير المؤمنين عليه السّلام التوفيق عناية[1] والتوفيق عناية الرحمن.[2]

والتوفيق لا يأتي بمعنى تعطيل دور قانون العلية في الحياة في الطبيعة والمجتمع ولا استحداث قوانين جديدة في الطبيعة والمجتمع لخدمة الانسان، وإنما يأتي بمعنى «توجيه الاسباب للانسان نحو الخير»[3] فإن قوانين الطبيعة والمجتمع تبقى فاعلة وحتمية ومنها ما يقود الانسان نحو الخير ومنها ما يقود الانسان نحو الشر، وعلى الانسان أن يختار منها هذا أو ذاك. وعليه يتقرر مصيره في السعادة والشقاء كما ذكرنا. ولكن ليس دائماً تتهيأ للانسان الفرصة الكاملة لأسباب الخير في الطبيعة والمجتمع. فقد لا تكون هذه الاسباب في متناوله وفي مقدوره. وقد تغيب عنه، ولا يهتدي اليها... وفي مثل هذه الحالات فإن الله -عزّ وجل- يأخذ بيد عبده الى هذه الأسباب التي تقوده الى السعادة والخير.

ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السّلام: اذا أراد الله بعبد خيراً أخذ بعنقه فأدخله في هذا الأمر(الولاء والهداية) إدخالاً.[4]

(١-٢) غرر الحكم للآمدي.

راجع سفينة البحار ٢/ ٦٧٥ مادة وفق والتعبير قريب مما ذكرناه.

(٣) الصحيفة السجادية الدعاء: ٣٢ ص: ١٧٢ النسخة المكتوبة بخط المرحوم الحاج أحمد الزنجاني.

(٤) بحار الأنوار ٥/ ١٩٨ ح١٧.

وعنه عليه السّلام أيضاً : «إنَّ الله تبارك وتعالى اذا أراد بعبد خيراً وكل به ملكاً فأخذ بعضده فأدخله في هذا الامر» . [١]

وتعبيرات الامام أمير المؤمنين عليه السّلام عن التوفيق كما في غرر الحكم للآمدي دقيقة ومعبرة عن هذه الحقيقة ومنها : «التوفيق قائد الصلاح»[٢] و«التوفيق رأس النجاح»[٣] و«التوفيق رأس السعادة»[٤] و«بالتوفيق تكون السعادة»[٥] و«لا قائد كالتوفيق»[٦] والسبب في ذلك كله واضح فان التوفيق الإلهي يقود الانسان الى أسباب الصلاح والنجاح والسعادة .

ومالم يوفق الله تعالى عبداً ويرد به خيراً فإنه لا ينال من أسباب الخير بجهده وعقله إلا القليل«لا ينفع إجتهاد بغير توفيق»[٧] فاذا أراد الله تعالى به خيراً و وفقه وضع جهده في موضعه من أسباب النجاح والفلاح فيكون جهده مثمراً، يقول الامام عليه السّلام «خير الاجتهاد ما قارنه التوفيق»[٨] وقد ورد في الحديث أن«التوفيق أشرف الحظين»[٩] ويقصد به حظ الانسان من أسباب السعادة والخير التي ينالها بجهده وعقله وإمكاناته التي أعطاها الله تعالى إياه وهو أحد الحظين وأقلهما شأناً، والحظ الآخر هو أن يهدي الله تعالى عبده لما يغيب عنه من أسباب الخير أو لما لا تناله يده من أسباب الخير، ويضعه في موضع أسباب السعادة والخير، وهذا هو الحظ الثاني وهو أستر فهما كما في الحديث .

ولا شك في أن(التوفيق) عامل غيبي من الخارج يضع الانسان في مواضع الخير وأسبابه، وهو شيء آخر غير الامكانات العقلية والفطرية والقوة التي أودعها الله تعالى في نفس الانسان . فإن هذه الامكانات التي أودعها الله تعالى في الانسان لا تستطيع لوحدها أن تنهض بالانسان وتقوده الى أسباب الخير وتجنبه أسباب الشر، فاذا أراد الله تعالى بعبد خيراً أعانه على صرف جهده وإمكاناته في مواضعها

(١) نفس المصدر ٥/١٩٨ح١٨ .
(٢-٩) غرر الحكم للآمدي .

من أسباب الخير. وفي الحديث التالي إيضاح كاف لهذه الحقيقة:

«روي أن رجلاً سأل الصادق عليه السّلام فقال: يا ابن رسول الله! ألست أنا مستطيعاً لما كلِّفت؟

فقال له عليه السّلام: ما الاستطاعة عندك؟

قال: القوة على العمل.

قال له عليه السّلام: قد أعطيت القوة، إن أُعطيت(المعونة).

قال له الرجل: فما المعونة؟

قال: التوفيق.

قال(الرجل): فلم إعطاء التوفيق؟

قال(الامام): لو كنت موفقاً لكنت عاملاً وقد يكون الكافر أقوى منك ولا يعطى التوفيق، فلا يكون عاملاً.

ثم قال عليه السّلام: أخبرني عمن خلق فيك القوة؟

قال الرجل: الله تبارك وتعالى.

قال الصادق: هل تستطيع بتلك القوة دفع الضرر عن نفسك، وأخذ النفع اليها بغير العون من الله تبارك وتعالى؟

قال: لا.

قال: فلم تنتحل ما لا تقدر عليه؟

ثم قال: أين أنت من قول العبد الصالح: ﴿**وما توفيقي إلاّ باللّه**﴾. [1]

وهذه الرواية تصنف القوى العاملة والمؤثرة في حياة الانسان الى ثلاثة:

١- القوانين الطبيعية والاجتماعية(سنن الله) التي تقود الانسان الى الخير أو الى الشر.

٢- القوى التي أودعها الله تعالى في الانسان والتي يستعملها الانسان للوصول

(١) بحار الأنوار ٥/ ٤٢ والآية الكريمة ﴿وما توفيقي إلاّ باللّه عليه توكّلت وإليه أنيب﴾ في سورة هود: ٨٨.

الى هذه أو تلك من أسباب الخير أو الشر في الطبيعة والمجتمع .

٣- التوفيق والعون الإلهي الذي يهدي به الله تعالى عباده الى أسباب الخير ويعينهم عليها ويأخذ بأيديهم اليها لينالوا منها ما كان يغيب عنهم أو ما كان تقصر أيديهم عنه. ومن دون هذا الأخير لا ينال شيئاً يذكر من الخير.

روى الكراجكي عن الكنز قال: قال الصادق عليه السّلام: ما كل من نوى شيئاً قدر عليه، ولا كل من قدر على شيء وفق له، ولا كل من وفق لشيء أصاب له، فإذا اجتمعت النية والقدرة والتوفيق والإصابة فهنالك تمت السعادة. (١)

النتائج التربوية للإحساس بالتوفيق الإلهي

وعندما يعي الانسان هذه الحقيقة الكبرى في الحياة، في أهمية عامل التوفيق الإلهي في بناء حياة الانسان وتقرير مصيره وهدايته وسداده ونجاحه وفلاحه، ويعي عجزه كإنسان عن أن يحقق في حياته شيئاً من ذلك بقواه وإمكاناته الذاتية التي أودعها الله تعالى فيه ... ينفعه الاحساس من الناحية التربوية في أمرين أساسيين.

١- يكفكف في نفسه غلواء الغرور والزهو عندما يفتح الله-تعالى-له أبواب الرحمة، فلا يناله الغرور ولا يصده الزهو الباطل.

وقد روي عن الامام الرضا عليه السّلام أن أيوب عليه السّلام قال: يارب ما سألتك شيئاً من الدنيا قط، وداخله شيء (من الغرور والزهو الروحي بالزهد والإستغناء عن متاع الحياة الدنيا).

فاقبلت اليه سحابة حتى نادته: يا أيّوب من وفقك لذلك؟

قال: أنت يا رب. (٢)

وما أجمل جواب العبد الصالح شعيب عليه السّلام لقومه عندما أنكروا عليه دعوته

(١) بحار الأنوار ٥/ ٢٠٩-٢١٠.

(٢) بحار الأنوار ١٢/ ٣٥٣.

وقالوا له : **﴿يـٰشُعيبُ أصلاتُكَ تأمُرُكَ أنْ نَترِكَ ما يعبـدُ ءَاباؤنا أو أنْ نفعلَ في أموالنا ما نشـٰؤا إنّك لأنت الحليمُ الرّشيدُ﴾** . (هود : ٨٧)

إنـك لتقرأ هـذا الحوار مـن القرآن فتشعـر بظـل الأنانيـة الثقيلة فـي كلام قـوم شعيـب«مــا يعبـد آبــاؤنــا» «أن نفعـلَ فــي أمـوالنـا مــا نشـاء»ثــم الاستخفـاف والاستهزاء«أصلاتُكَ تأمركَ» «إنّك لأنت الحليم الرّشيد»!!

ولنقرأ الآن جواب شعيب :

﴿قال يـٰقَوم أرأيتُم إنْ كنتُ على بَيّنَةٍ من ربّي و رزقني منهُ رزقاً حسناً وما أريدُ أن أُخالفكم إلىٰ ما أنهٰكم عنه إنْ أُريدُ إلاّ الإصلـٰحَ ما استطعتُ وما توفيقي إلاّ باللّه عليه توكّلتُ و إليه أُنيبُ﴾ . (هود : ٨٨)

ونقرأ هذا الجواب فلا تكاد تحس لهذا العبد الصالح بظل من هذا الحوار

«بيّنة من ربّي» : (بيّنـة) وليس تعصُباً لما يعبد الآباء . و(مـن ربي)، وليس من صنعي ولا مما انتهيت اليه بفكري وجهدي«ورزقنـي منه رزقاً حسناً» : رزقني الله من لدنه ومن عنده رزقـاً حسناً مباركاً ... نقرأ هذا الكلام فلا نحـس بشعيب ولا بظل له . ثم نلتقي بشعيب فجأة : «إن أُريدُ إلا الإصلاحَ» .

ولكن في إطار الاصلاح والهدى... ومع ذلك يسرع فيتدارك هذه(الأنا) مباشرة بـ(ما استطعت) بحـدود قدرته و إستطاعته وهـي محدودة... وكأنه لا يجـد في هذا التحديـد والتحجيم(للأنـا) ما يبغي من إظهـار شأن الله عـز شأنه ونكـران الذات ، فيتدارك الأمر مـرة ثانية ومباشـرة«وما توفيقي إلا بـالله» : فما يصنعه مـن فعل ويقدم عليه مـن أمر في إصـلاح لا يتم منه شيء إلا بتـوفيق من اللـه وليس له فـي ذلك أي شأن ، والجملة -كما يقول أهل العربية- تفيد الحصر ونفي أي شيء له في هذا الأمر وحصر الامـر كله في اللـه تعالى . ثم يكـرس مرة أُخرى هـذا الاحساس بقولـه«عليه توكلت ، واليه أُنيب» .

ولا يتأتى لـلأنا أن تختفي تماماً عـن المسرح ويتأكد عند صـاحبها الاحساس بحضور الله ومعية الله وحول الله وسلطانـه ، وان ليس له من حول وقوة إلا بالله . إلا

عندما يستشعر معية الله تعالى له وتوفيقه إياه بمثل هذه الدرجة من البصيرة والرؤية .

٢- وهذا الاحساس ينفع الانسان ثانياً في حصر ثقته في الله-تعالى-وفي أن يضع كل ثقته ورجائه في الله، ويقطع كل أمل ورجاء من عند غير الله .

روى الشيخ الكليني رحمه الله في الكافي عن ابن جميلة قال: سمعت أبا عبد الله(الصادق) عليه السّلام يقول: كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإن موسى عليه السّلام ذهب يقتبس ناراً، فانصرف اليهم وهو نبي مرسل .[(١)]

ومهما يكن من أمر فإن ظاهره التوفيق في حياة الانسان ظاهرة واسعة وممتدة . وأي إنسان اذا أنعم الله عليه بالبصيرة وأنعم النظر فلا يكاد يخفى عليه لمسات يد الله -تعالى- في حياته في سرائه ضرائه ومن الشدة والرخاء، لا تغيب عنه رعاية الله، ولا يتخلى عنه التوفيق الإلهي، في حياته المادية وحياته المعنوية وفي حركته وعمله .

مقارنة بين ما يطمح اليه الانسان وبين توفيق اللّه للانسان

مقارنة بسيطة بين ما كان يطمح إليه الانسان في تفكيره وتخطيطه لحياته وما آل اليه أمر حياته بتوفيق الله وتأييده والفارق بين ما كان يريد وما أراد الله-تعالى-له يكشف لنا ضخامة دور التوفيق في حياة الانسان وتذكرنا بما كان يريد المسلمون من غنيمة باردة عندما خرجوا الى بدر ليرجعوا بأموال قريش وما أراد الله -تعالى- لهم من طريق ذات الشدّة: فلقد كان أكبر هم المسلمين أن يرجعوا بتجارة قريش موفورين وكانوا يكرهون أشد الكره لقاء قريش والقتال معهم، وأراد الله -تعالى- لهم أن يلاقوا قريشاً في معركة حاسمة يعودون منها أشداء أقوياء سادة قوامين للحق يرفعون كلمة الله على وجه الارض في مشارقها ومغاربها .

﴿وإذْ يَعِدُكم اللّهُ إحدَى الطّائفتَين أنّهـا لكم وَتَودُّونَ أنَّ غَيرَ ذات الشّوكةِ تكون

(١) بحار الأنوار ١٣/ ٣١-٣٢ وفروع الكافي ١/ ٣٥١ وفيه فإن موسى ذهب ليقتبس لأهله ناراً .

لكم ويريدُ اللّهُ أنّ يُحقَّ الحقَّ بكلمـٰتِه ويقطع دابرَ الكـٰفرين﴾ . (الأنفال : ٧)

إن الانسان قد يريـد الوصول الى شيء من معصية الله فيخـرج اليه فيسلك الله تعالى به طريقاً الجنة .

و إن الانسان قد يسلك طريقاً الى الراحـة والعافية و إيثار الحياة الدنيا ، فيسلك الله تعالى به طريقاً الى ذات الشدة والى الجنة .

و إن الانسان قـد يسلك طريقـاً الى متاع قـريب من متـاع الدنيا ، فيسلـك الله تعالى به طريقاً الى رضوانه وقربه .

و إن الانسان قد يخـرج من بيته في مهمـة ، ولا يعلم ماذا يصنع وأيـن يذهب ، وأي باب يطـرق ، ومن أي وجه يطلـب حاجته ، فيـأخذ الله تعـالى بيده ويسلـك به الطريق الى حاجته خطوة خطوة .

التوفيقات الرّبانيّة في حياة الدّعاة

إن الانسان يجد أمـامه في الدعوة الـى الله طريقاً صعباً وعـراً وعقبات صعبة ، وأعداءً جبـابرة فيحار مـاذا يصنع ويكاد يـركن في لحظـة من لحظات الضعـف الى الخوف والتقـاعس ، فيأخذ اللـه بيده ويجتاز به هـذه العقبات عقبة عقبة ، ويمـر به على مراحل الطريق الصعبة مرحلة مرحلة ، ولا يفارقه في مواجهة الأخطار وفي معاناة العمل الطـويلة ، وعنـد منعطفات الطريـق الصعبة ، وفـي إجتياز العقبـات . يلمس خلالها يد الله تعالى ترافقه وترعاه وعين الله -تعالى- تبصره ، وتعطف عليه .

وقد كان يقـع أحدنا -من حملة الدعـوة الى الله- في قبضة جـلاوزة الطاغوت في حقدهـم ووحشيتهم المعروفة فتضعف نفســه عندما يجد نفسه وحيـداً في قبضة السفاكين يعملون فيه ما يشاؤون لينتزعوا منه ما يشاؤون ، ويخشى أن تضعف مقاومته أمام التعذيب ويبوح بما يحرم عليه أن يبوح فيخسر دينه ودنياه ، فيملأ الله -تعالى- نفسه ثقة ، ويهب جسده قوة ، ويجعل في نفس أعدائه الضعف والجبن ، ويجتاز به الزنزانـات وحفلات التعذيب والتحقيق ومـراحل السجن والعذاب ، ويـؤنس وحشته

في وحشة الزنزانات، ويملأ دنياه الصغيرة بين جدران الزنزانة الموحشة بما لا حد له من اليقين والإيمان والثقة بالله والصبر وابتغاء رضوان الله ورحمته.

وإن الداعية ليفر بدينه فيخاف على أسرته وعائلته أن تصيبهم ضراء الجوع والخوف فيهيء الله تعالى لهم من المؤمنين من يقاسمونهم لقمة خبزهم ويؤثرونهم على أهلهم.

لمسات التوفيق الإلهي للدّعاة من القرآن

ولنرجع الى القرآن لنلمس مواضع توفيق الله وتأييده لعباده الصالحين ولحملة دعوته ورسالته كيف تواكب هذه الرعاية الإلهية المؤمنين في مراحل الحياة الصعبة، وأمام بطش الجبابرة والطغاة. فها هي أم موسى تضع وليدها عليه السّلام فتخاف أن يقتله جلاوزة فرعون فيضعف فؤادها لذلك فيأمزها الله تعالى أن تقذف به في البحر وسط أمواجه العاتية الغاضبة ليرده اليها من داخل قصر فرعون. ومن قبضة الطاغية فتمتثل الأم خائفة وجلة:

﴿وأوحينا إلىٰ أُمِّ موسىٰ أن أرضِعيه فإذا خِفتِ عليه فألقيه في اليَمّ ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادُّوه إليكِ وجاعلُوهُ من المرسلين*فالتقطهُ ءَالُ فرعونَ ليكونَ لهم عدوّاً وحزناً إنَّ فرعونَ وهٰمٰن وجنودَهما كانوا خٰطئين*وقالت امرأتُ فرعون قُرَّتُ عينٍ لي ولك لا تقتلوهُ عسىٰ أن ينفعنا أو نتّخذهُ ولَداً وهم لا يشعرون*وأصبحَ فؤادُ أمّ موسىٰ فٰرِغاً إنْ كادت لَتُبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكونَ من المؤمنين*وقالت لأخته قُصِّيه فَبَصُرَتْ به عن جُنُبٍ وَهم لا يشعرون*وحرَّمْنا عليه المراضعَ من قبلُ فقالَتْ هل أدُلُّكم علىٰ أهلِ بيتٍ يكفلونَهُ لكم وهم له نٰصِحون*فَرَدَدْنٰهُ إلىٰ أُمِّه كَي تقرَّ عينُها ولا تحزنَ ولتعلمَ أنَّ وعدَ اللّه حقٌّ ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون*ولمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واستوىٰ ءَاتينٰهُ حُكماً وعِلماً وكذٰلك نجزى المُحسنين﴾ . (القصص: ٨-١٥)

سبحانك اللهمّ! من رب قادر متعال، رؤوف رحيم تنقذ هذا الوليد الرضيع من بطش فرعون الذي آلى على نفسه أن يقتل كل وليد لبني إسرائيل، ومن وسط عباب

أمواج البحر ترافقه رعايتك عبر أمواج البحر وقصر الطاغية وبطشه ويعود الطفل الرضيع الى أمه كي تقر به عينها ولتعلم أن وعد الله حق، وتواكبه رعايتك حتى يبلغ أشده، ويستوي وتؤتيه من لدنك حكماً وعلماً. وتؤتيه الحكم والنبوة في جانب الطور وهو يبحث عن قبس من النار لأهله في ليلة ظلماء باردة:

﴿فلمّا قضىٰ موسَى الأجلَ وسار بأهلِهِ ءَانَسَ من جانب الطّور ناراً قال لأهله امكُثُوا إنّي ءَانستُ ناراً لَعلّي ءَاتيكم مِنها بخبرٍ أو جَذوةٍ من النّار لَعلّكم تَصطلون*فلمّا أتىٰها نوديَ من شاطئ الوادِ الأيمن فى البُقعةِ المُبٰرَكَةِ من الشّجرةِ أن يٰموسىٰ إنّي أنا اللّه ربّ العٰلمين﴾ . (القصص: ٢٩-٣٠)

يبحث عن جذوة من النار لأهله في ليلة ظلماء باردة وموحشة فاذا النداء المبارك الذي يملأ قلبه شوقاً وخوفاً و إيماناً ويقيناً «إنّي أنا اللّه ربُّ العالمين».

ويضعف فؤاد موسى عليه السّلام ان يضطلع بهذه الدعوة الكبيرة(النبوة) فيؤتيه الله تعالى برهانين كبيرين:

﴿وَأنْ ألقِ عصاكَ فلمّا رَءَاها تَهتَزُّ كأنّها جانّ ولّىٰ مدبراً ولم يُعقّبْ يٰموسىٰ أقبِلْ ولا تَخفْ إنّكَ من الآمنين*أُسلُك يَدَكَ في جَيبكَ تخرُجْ بيضاءَ من غير سوءٍ واضمُم إليك جناحكَ من الرّهَبِ فذانِكَ برهانانِ من ربِّكَ إلىٰ فرعونَ وملَإيْه إنّهم كانوا قوماً فٰسقين﴾ . (القصص: ٣١-٣٢)

إن حياة رسول الله وكليمه موسى عليه السّلام من ولادته الى رسالته والى أن نصره الله تعالى على فرعون وجنده وأنجاه من اليم وغرق فرعون وجنده فيه الى نهاية حياته سلسلة متوالية ومتعاقبة من تأييد الله تعالى وتوفيقه ورعايته ويشعر الانسان بيد الله تعالى تواكب هذا العبد الصالح وترافقه في مختلف مراحل حياته الصعبة.

وليس موسى عليه السّلام بدعاً من الرسل، ولا يختلف الأمر في الأنبياء، والرسل في سائر الناس من حَمَلَة الدعوة والرسالة.

(ما أمر الله بشيء إلا وأعانَ عليه). كما يقول الامام أمير المؤمنين عليه السّلام.

يقول تعالى **﴿إن تنصروا اللّهَ ينصركم ويثبّت أقدامكم﴾** . (محمد: ٧)

ويقول تعالى ﴿إنّا لَنَنصُر رسلنا والَّذين ءَامنوا في الحيوٰة الدّنيا﴾ . (غافر: ٥١)

الذين يلمسون يد اللّه فيما ينالهم من التوفيق

وما أكثر ما يلتقي الناس وسيّما الدعاة العاملون منهم بيد الله تعالي في حياتهم وتوفيقه وتسديده لهم دون أن يعرفوها .

إن التوفيق الإلهي سنة إلهية عامة مع كل الناس بدرجات مختلفة ، إلا الذين يسلبهم الله التوفيق . ومن دون هذا الاصل لا يمكن أن تستقيم حياة الناس ... ولكنْ قليلون من الناس من يلمسون يد الله في حياتهم ويحسون بها ويعرفونها وهم ذوو البصائر من عباد الله . وتلك خسارة حقيقية في عالم(المعرفة) . أن ينعم الله على عبد بالتوفيق في حياته في السراء والضراء وعند كل خطر ومزلق من مزالق الحياة ، وفي المعاناة والراحة والرخاءوالشدة ثم لا يعرف يد الله في حياته ولا يعرف رعايته له لا يشعر بمعية الله تعالى له في حياته ، وان يفتح الله تعالى عليه باباً واسعاً من أبواب رحمته ومعرفته ، فيقف الانسان دون هذا الباب ولا يهتدي الى اليد الرحيمة التي ترافقه وتعطف عليه وتشده ، وتعضده ، وتفتح عليه مغاليق أبواب الحياة ، وتيسر له ما أغلق عليه من مسائل الحياة ، وتؤدبه وتهذبه .

التوفيق باب من أبواب التوحيد

و(التوفيق) من الأبواب الواسعة لمعرفة الله والانسان يهتدي الى الله من أبواب ثلاثة : **١- الفطرة ٢- والعقل (الأدلّة العقلية) ٣- والتعامل مع الله تعالى .**

والأخير(التعامل مع الله) باب واسع للمعرفة يلجه ذوو البصائر من الناس ، ويهب الانسان من الايمان والثقة والطمأنينة والاتكال ما لا تهبه الفطرة ولا العقل .

فإن الانسان من خلال التعامل مع الله(الأخذ والعطاء) أو التجارة مع الله ، كما يقول القرآن الكريم ، يشعر شعوراً قوياً برحمة الله وعطائه وبقرب الله تعالى منه ومعيته له ... ومن خلال مراقبة مواقع تأييد الله تعالى وتوفيقه له ومعيته له في السراء

والضراء وحفظه إيّاه من المهالك والمزالق وتسديده له، وهي كثيرة يشعر بصورة قوية وعميقة بمعية الله.

سنن اللّه من التوفيق

وقبل أن نفارق الحديث عن(التوفيق) أحب أن أختم الحديث عن أسباب التوفيق وقوانينه في حياة الانسان... فقد لا نعود الى هذه النقطة بعد هذا الموضع خلال هذه التأمّلات:

إن للتوفيق الإلهي في حياة الانسان سبباً وقوانين وأصولاً وليس أمراً عفوياً في حياة الناس، فمن أنعم الله تعالى عليه بالتوفيق لابد أن يكون أهلاً وموضعاً لهذه الرحمة الإلهية، ومن سلب الله تعالى عنه التوفيق ووكله الى نفسه لابد أن يكون هو ممن أضاع هذه الفرصة على نفسه وفقد الأهلية لنزول رحمة الله تعالى-فلم يعد بعد موضعاً لنزول هذه الرحمة.

فليس في رحمة الله تعالى شح أو بخل، ولا نفاد لخزائن رحمته، وإنما يَنعَم من الناس من يَنعم بالتوفيق الإلهي، ويحرم من يحرم من الناس من توفيق الله وتختلف درجات الناس وحظوظهم من توفيق الله على قدر إستحقاقهم وأهليتهم وسعة آنائهم.

والتوفيق من رحمة الله تعالى تنزل على عباده من غير حساب ويحرم الذين خسروا أنفسهم من هذه الرحمة الإلهية رأساً وينال المؤمنون بعد ذلك من هذه الرحمة الربانية على قدر ما يتسع لها إناء نفوسهم.

أرأيت المطر ينزل من السماء على الارض غزيراً فلا تنال منه الصخرة المرتفعة شيئاً ولا تنال منه الارض الصلبة إلا القليل، ويمتص من الارض الهشة الكثير. وتحتفظ بكميات كبيرة منه في جوفها، ثم تعطي ثماراً طيبة وشهية، إن هذا الاختلاف ليس إختلافاً في حجم المطر النازل من السماء وإنما ينبع من إختلاف الأراضي في قبول المطر وفي الخصوبة.

وكذلك آناء النفوس تختلف في رفض وقبول رحمة الله النازلة كما تختلف في درجة قبولها لرحمة الله تعالى .

وهذا الاختلاف يتم بفعل الانسان و إردته .

وليس في أصل الخلقة حالة إنغلاق على رحمة الله تعالى فاذا أعرض عن الله هبطت درجة إستعداده لاستقبال رحمة الله ، واذا أصر على هذا الاعراض يتضاءل إستعداده لاستقبال رحمة الله تعالى ، أكثر فأكثر، فإذا استمر علي هذه الحالة تنعدم قابليته لاستقبال رحمة الله بصورة نهائية . وبالعكس كلما يقبل على الله تعالى يتسع إناء نفسه لإستقبال رحمة الله حتى يبلغ مرحلة الصدّيقين والأولياء من عباد الله .

و(التوفيق) من هذه الرحمة الإلهية الهابطة علي العباد ويتبع هذه السنة الإلهية . فكلما إزداد الانسان إقبالاً على الله تعالى زاد حظه من توفيق الله تعالى ورعايته .

يقول أمير المؤمنين عليه السّلام في بيان هذه السنة الألهية في علاقة التوفيق بالإقبال على الله والدين :

«كما أن الجسم والظل لا يفترقان كذلك التوفيق والدّين لا يفترقان»[1] والمعادلة القائمة بين علاقة الله تعالى بعبده وعلاقة العبد بربه يحدده قوله تعالى :

﴿فاذكروني أذكُرُكم﴾ . (البقرة : ١٥٢)

وفي مقابل(التوفيق) الخذلان وهو أن يتخلى الله تعالى عن عبده ويكله الى نفسه والى أهوائه وشهواته فيستفرد به الشيطان والهوى والطاغوت في ساحة الصراع الداخلي والخارجي، وليس ثَمّة من ينصره أمام العدو من داخل نفسه وفي الخارج :

﴿إن ينصركم اللّهُ فلا غالبَ لكم وإنْ يخذلْكم فمن الّذي ينصركم من بعده﴾؟(آل عمران : ١٦٠) .

إن الانسان ليقف في ساحة الصراع الملتهبة في مواجهة أعدائه من داخل

(١) غرر الحكم .

نفسه(الهوى) وفـي الخارج(الطاغوت) يتمتع بمعية اللـه تعالى وتأييده وتـوفيقه فلن يغلب الشيطان ولا الهوى ولا الطاغـوت، ما كان الله معه، وما كانت يـد الله تؤيده وتسدده فاذا تخلى عنه الله عزّ وجلّ وأحاله الى نفسه وأوكله اليها، استفرد به أعداؤه ولم يجد ناصراً ينصره وبان عجزه وضعفه عن المواجهة.

﴿وإنْ يخذُلْكُم فمن ذا الَّذي ينصُركُم مِن بعده﴾؟

العِصَم

العصم

بسم الله الرحمن الرحيم
اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم

يدخل في سلوك الانسان مجموعتان من العوامل هما :

«الحوافـز» و «الضوابط» والحـوافز هي العـوامل اتي تـدفع الانسان الـى سلوك وحركة معينة-و«الضوابط» هي التي تضبط «الحوافز» ضمن حدود وأُطر وقوانين إلهية أو طبيعيـة أو إجتماعيـة يتفـق عليها النـاس وتستقـر عليها حيـاة النـاس وسلوكهـم وعلاقاتهم .

وهذه الضـوابط هـي «العصم» التـي تقوم بـدور كبير فـي ضبط أهـواء الانسان وغرائزه وشهواته-وهي موضوع هذه المقالة .

وتعتبر عنصـراً من العناصر الاسـاسية في منهج التـربية الاسلامية ، وفيمـا يلي نحاول إن شاء الله أن نلم إلمامة موجزة ومقتضبة بهذا الموضوع من خلال كتاب الله .

فنتحـدث أولاً عن معنـى العصمـة ثم عـن دور العصم فـي حيـاة الانسان ثـم نتحدث عن جملة من مفردات «العصم» واحدةً بعد أخرى .

ثم عن العوامل التي تهتك العصم في حياة الفرد والمجتمع .

وقبل أن ندخـل في هذا البحث لابـد من توضيح ثـلاثة مصطلحات قرآنيـة لها صلةٌ مباشرة بتوضيح معنى «العصمة في سلوك الانسان» .

وهي «الفتنة» و «الهوى» و «الابتلاء» .

١ - الفتنة

يسقط الانسان من خلال الإثارة والإغراء والطمـع كما يسقط من خلال النوائب والمصائب . والبأس والضر، وفي حياة الانسان توجد مجموعتان من العوامل :

المجموعة الاولى : هي عوامل الإثارة والإغراء .

والمجموعة الثانية : هي عوامل البأس والضر.

والآية التـالية مـن آل عمران تعـدد طائفـة من عـوامل الاغـراء والاثارة فـي حياة الانسان **﴿زُيِّنَ للنّاس حُبُّ الشَّهَوٰت من النِّساءِ والبَنِينَ والقنٰطير المُقَنطرةِ من الذَّهَبِ والفِضَّةِ والخَيل المُسَوَّمة والأنعٰـمِ والحرث وذٰلك مَتٰـع الحيوٰة الدُّنيا واللّه عنده حُسن المَآب﴾** . (آل عمران : ١٤)

وهذه طائفة من أُمهات مصادر الاثارة والاغراء في واقع حياة الانسان وفي ساحة الحياة :

النساء ، البنون ، الذهب ، والفضة ، الخيل المسومة ، الانعام ، الحرث .

وآيـة البقرة تشـرح طائفـة مـن المجموعـة الثانيـة وهـي عوامـل البأس والضـر **﴿ولنبلُونّكـم بشيءٍ من الخـوف والجوع ونقص مـن الأموال والأنفس والثَّمـرٰت وبشِّر الصّـٰبرين*الَّذين إذا أصـٰبَتهم مصيبةٌ قالوا إنّا للّه وإنّا إليه رٰجعون﴾** . (البقرة : ١٥٥)

وهذه طـائفة من مصـادر البأس والضر فـي حياة الانسـان وبإمكاننـا أن نسمي الطائفـة الاولى بـ العـوامل «البسط» مـن قبيل المال-الجنـس ، الكرسي ، والمـوقع

الاجتماعي-الاولاد والبنون .

وتسمى الطائفة الثانية بعوامل «القبض» من قبل الخوف والجوع والمرض والسجون والتعذيب والمطاردة. وكلتا هاتين الطائفتين في الثقافة الاسلامية «فتنة».

إلا أن الطائفة الاولى «فتنة خير» والطائفة الثانية «فتنة شر».

يقول تعالى :

﴿ونَبلُوكم بالشَّرِ والخير فتنةً﴾ . (الانبياء : ٣٥)

وعن الطائفة الاولى من الفتن يقول تعالى :

﴿واعلموا أنّما أموالكم وأولـٰدُكم فتنةٌ﴾ .

وفي هذه الطائفة من الفتن ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

«إن في مال الرجل فتنة-وفي زوجته فتنة» . (١)

وورد في صفة عيسى بن مريم عليه السّلام عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام : «ولم تكن له زوجة تفتنه» . (٢)

وعن أمير المؤمنين عليه السّلام أيضاً لرجل يسمى «حرب» كان يمشي معه وهو راكب : «إرجع فإن مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمن» . (٣)

وفي الطائفة الثانية : «فتنة الشر» ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

«الفقير عند الغني فتنة والضعيف عند القوي فتنة» . (٤)

وورد عن أمير المؤمنين عليه السّلام في فتنة بني أمية وما أدت اليه هذه الفتنة من هلاك النفوس والحرث والنسل والاذى والعذاب للمؤمنين :

«ألا إن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية» . (٥)

(١) كنز العمال للمستنب الهندي ح٤٤٤٩٠ .

(٢) نهج البلاغة خطبة رقم : ١٦٠ .

(٣) نهج البلاغة باب الحكم-الحكمة رقم : ٣٢٢ .

(٤) كنز العمال ح٢٥٦٣ .

(٥) الغارات للثقفي ١/ ٦و١٠ .

والانسان قد يسقط في «فتنة الشر» : كما قـد يسقط في «فتنة الخير» ومن الناس من يسقـط في «القبـض» في البـأسآء والضراء، ومـن الناس مـن يهلك ويسقـط في «البسط» فـي اليسر والـرخاء، وفـي وسط عوامـل الاثارة والاغـراء . وعلى عكـس ما يتصور الانسان فإن خطـر عوامل البسط «في اليسر والرخاء» أعظـم على الانسان من خطر عوامل القبض في «البأساء والضراء» .

والذين يسقطون في الطائفة الاولى من عوامل الفتنة أكثر من الذين يسقطون في الطائفة الثانية .

وقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

«أنا لفتنة السراء أخوف عليكم من فتنة الضراء إنكم إبتليتم بفتنة الضراء فصبرتم وإن الدنيا حلوة خضرة» . (١)

وكما أن «الفتنة» في بعديها من مزالق السقوط في حياة الانسان كذلك هي سلم للصعود والارتقاء الى قرب الله تعالى في حياة الانسان . وعلي هذا السلم يصعد ناس الى الله تعالـى في اسراء والضراء ، كما يسقط ناس آخرون فـي أحضان الشيطان من تعلى هذا السلم في السراء والضراء .

٢- الهوى

و«الهوى» فـي مقابل «الفتنة» فـإن الفتنة قائمـة في واقع الحياة خـارج النفس ، والهوى في داخل النفس .

والهوى يطلـب الفتنة-وينجـذب اليها . والفتنـة تجذب الهـوى . ومثال ذلـك «الغريزة الجنسيـة» و «الجنس الآخر» . فإن الغـريزة تطلب الجنس الاخـر، وتنجذب اليها ، والجنس الاخر يجذبُ الهوى . وهكذا «حـب المال» و «المال» يقول تعالى : «وتحبون المال حباً جماً» فإن «حب المال» هوى نابع من داخل النفس و«المال» فتنة

(١) الترغيب والترهيب ٤/ ١٨٤ .

خارج النفس، وغريزة حب المال تطلب المال-والمال يجذب الغريزة. وهكذا نجد في مقابل كل فتنة خارج النفس هوى داخل النفس.

يطلب الهوى الفتنة، وتجذب الفتنة الهوى. هكذا في فتنة الخير.

وفي فتنة الشر الامر بالعكس يجزع الهوى من الفتنة، وتضغط الفتنة على الهوى، وسقوط الانسان في فتنة الخير الاستسلام للفتنة ودعوة الهوى، وفي فتنة الشر الجزع والانهيار تجاه الفتنة.

والهوى في حياة الانسان يعتبر من أقوى عوامل السلوك وقد ورد في القرآن على لسان إمرأة العزيز:

﴿إنَّ النَّفس لأمّارةٌ بالسّوء﴾.

وقد إستخدم القرآن في هذه الآية مجموعة من أدوات التأكيد[١] لتكريس هذه الحقيقة.

ولأمر ما خلق الله تعالى الهوى بهذه الدرجة من القوة والتأثير في حياة الإنسان فإن «الهوى» من أقوى عوامل السلوك في حياة الانسان، ولولا الهوى لم تستقر حياة الانسان، ولم تتصل ذريتة، ولم يعمر على وجه الارض ولم يدافع عن نفسه.

إلا أن الهوى مع ذلك يعتبر أخطر المزالق والمهالك في حياة الانسان.

وليس في حياة الانسان خطر أعظم من خطر الهوى.

٣- الابتلاء

وإبتلاء الانسان في علاقة الهوى بالفتنة. فإن الهوى يطلب الفتنة. والفتنة تدعو «الهوى»، كما ذكرنا وفي هذا الطلب والدعوة، وهذه الجاذبية في الفتنة للهوى، مصدر الابتلاد في حياة الانسان فإن الاهواء تطغي وتلح في الطلب. وهي قوية مؤثرة ونافذة.

(١) الجملة إسمية: متصدرة بأن، ولام التأكيد-وصيغة إمارة الدالة على المبالغة.

وليس في أصل الاستجابة للهوى بأس في الحدود التي يقرها العقل والدين .

فإن الاستجابة «مثلاً» للغريزة الجنسية في الحدود التي يقرها العقل والدين تحفظ الانسانية من الاندثار.

والاستجابة لغريزة الغضب في الحدود التي يقرها العقل والدين تحفظ الانسان من عدوان الاخرين ، وتمنح الانسان المقاومة أمام تجاوز الاخرين .

إلا أن الهوى يطغى «إن الانسان ليطغى» ، ويتجاوز حدود العقل والدين ، ويملك من القوة والتأثير ما يمكنه من إختراق هذه الحدود .

وفي ذلك إبتلاء الانسان . فاذا قاوم الانسان إندفاع الهوى ، وتمكن من أن يضبط أهوائه وشهواته عند حدود الله تعالى والتزام ، بحلاله وحرامه ، أفلح وفاز، واذا ضعف الانسان عن مقاومة زخم الهوى ، واستسلم للهوى في طغيانه سقط وهلك ﴿فأمَّا من طغىٰ*وءَاثَرَ الحيوٰة الدُّنيا*فإنَّ الجحيم هي المأوىٰ*وأمّا من خاف مقام ربِّه ونهَى النَّفسَ عن الهوىٰ*فإنَّ الجنَّة هي المأوىٰ﴾ . (النازعات : ٣٩-٤٠)

وقد يكون إبتلاء الانسان بفتنة الخير، كما في الابتلاء بالاموال والازواج والبنين ، وقد يكون إبتلاء الانسان بفتنة الشر، كما في إبتلاء الانسان بالفقر والمرض والبأساء والضراء .

﴿ونَبلُوكم بالشَّرِ والخير فتنَةً﴾ . (الانبياء : ٣٥)

وفي كل من هذين الابتلائين لا يستوي حال الانسان قبل الابتلاء وبعده ، فإن الانسن في الابتلاء إما أن يسقط أو يصعد .

والناس على سلم الابتلاء على طائفتين : طائفة تسقط الى الجحيم ، وطائفة أُخرى ترتقي الى الجنة .

والابتلاءات في حياة الانسان خافضة رافعة تخفض أناساً وترفع آخرين .

ومصدر الابتلاء في حياة الانسان الاحتكاك المباشر الذي يتم بين الاهواء من داخل النفس والفتن القائمة في مساحة الحياة «خارج النفس» .

نظرية «العصم»

إذن لا يصح ولا يجوز أن نسمح لأهوائنـا أن تطغى وتتجاوز الحدود، ولا يصح أن ننساق معها وننقاد لطلباتها ودعواتها، ولابد من عمل جاد لضبط الهوى وتحديده وتعديله لكيلا يطغى ويتجاوز الحدود وهذا أمر لا يختلف فيه أحد من العقلاء ولكن كيف؟

وبأي منهجية في التربية يمكن ضبط الاهواء والشهوات. النظرية الرهبانية تتجه الى كبت الهوى وكبح الشهوات والغرائز.

وهذا إتجـاه معروف فـي هذه المـدرسة، ولـه جذور عميقـة تمتد الـى أعماق التاريخ وتتلخص هـذه النظرية في عزل «الاهواء» عن «الفتـن»، وتجنب متاع الحياة الدنيـا، والابتعاد عنهـا. فإن مشكلـة الانسان مـادامت تكمـن في الاحتكـاك، وفي العلاقـة بين الهوى والفتنة، فـإن سلامة الانسان تكمـن في عزل الهوى عـن الفتن، وإعتزال الدنيا ومغرياتها ومثيراتها.

وتتم هـذه المنهجية مـن خلال «إعتـزال» الحياة الـدنيا، ومـن خلال «كبـت» الغرائز وكبحها.

وهذه منهجية معروفة في تاريخ الفكر وتمتـد هذه المدرسة في بعض خطوطها وإمتداداتهـا المعاصـرة الى المسيحية المعـاصرة. والاسلام يعـارض هذه المنهـجية معارضة شديدة ويرى أن «الاعتزال» و«الكبـت» و «الكبح» ليس فقط لا يحل مشكلة الانسان اتجاه الاهواء والفتن، وإنما يحرف الانســان الى إتجاه معاكس لمسيرة سنن الله في خلق الانسان. ولنقرأ هذه الطائفة من الآيات من سورة الاعراف:

﴿يـٰبَني ءَادم خذوا زينَتكم عند كلِّ مسجدٍ وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا إنَّه لا يحبُّ المسرفين﴾.

﴿قل مـن حرَّم زينةَ اللّه الَّتـي أخرج لعباده والطَّيِّبـٰت مـن الرِّزق قل هي للَّـذين ءَامنوا في الحيوٰة الدُّنيا خالصةً يومَ القيـٰمة كذٰلك نفصِّل الآيـٰت لقوم يعلمون﴾.

﴿قل إنَّما حرَّم ربّيَ الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن والإثمَ والبغيَ بغير الحقِّ وأن

تشـركـوا بـالله مـا لـم ينـزّل بـه سلطـنـاً وأن تقـولـوا علـى اللّـه مـا لا تعلمونَ﴾ . (الاعراف : ٣٢-٣٣)

وهذه الآية الكـريمة تدعو أولاً الى الدخـول في الدنيا والتمتع بطيبـاتها من دون إسراف .

«يٰبني ءَادم خذوا زينتكم عند كلِّ مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» .

ثم تشجب موقف أولئك الذين يحرمون ما أحل الله من طيبـات الدنيا «قل من حرّم زينة اللّه الَّتي أخرج لعباده والطَّيِّبٰت من الرِّزق» .

ثم تذكر الآية أن الدنيا وا فيها من الطيبـات للذي آمنوا يشاركهم فيها غيرهم من المشركين وأما في الاخرة فلهم هذه الطيبات خالصة دون المشركين :

«قل هي للَّذين ءَامنوا في الحيوٰة الدُّنيا خالصةً يوم القيٰمة» .

ثم تبين الآية المباركـة أن الله تعالى حرم فقط الفواحش في هـذه الدنيا ما ظهر منها وما بطن ، وحرم الاثم والبغي والعدوان .

إذن يرفـض الاسلام الدعـوة الى مقاطعـة الدنيـا ويأمر بـالتمتع بطيبات الـدنيا ويشجب عمل أولئك الذين يقاطعون الدنيا ويحرمون أحل الله من الطيبات .

ومن هذه الطيبـات ما يفتن الله تعـالى بها عباده ، ومـع ذلك كله لا يأمـرنا الله تعالى أن نعتزلها ونتبرأ منها ، وإنما يأمـرنا تعالى أن نتجنب الفواحش منها فقط ، وأن نحذر التجاوز لحدود الله .

سمع أمير المؤمنين عليه السّلام رجلاً يقول : اللهم إني أعوذ بك من الفتنة .

قال عليه السّلام : أراك تتعوذ من مالك وولَدك . يقول تعالى :

«إنمـا أموالكـم وأولٰدكم فتنـة» ولكـن قل اللهـم إنـي أعوذ بـك من مضـلات الفتن» . (١)

وعن أمير المؤمنين علي عليه السّلام : لا يقولن أحـدكم اللهم إني أعـوذ بك من

(١) بحار الانوار ٩٣/ ٢٣٥ .

الفتنة، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من إستعاذ فليستعذ من مضلات الفتن، فإن الله سبحانه يقول:

﴿واعلموا أنّما أموالكم وأولٰدكم فتنة﴾ . (١)

إذن ما هي المنهجية التي يتبعها الاسلام في ضبط الهوى وتعديله وتحديده؟

إن الاسلام يطرح بهذا الصدد نظرية جديدة ومنهجاً تربوياً جديداً لضبط الهوى-وهذه النظرية هي نظرية «العصم».

إن «العصم» في سلوك الانسان تشبه «العازل» في الفيزياء.

أرأيت كيف يمكن الانسان أن يتعامل مع النار والكهرباء من خلال العازل، دون خطر.

كذلك الانسان يستطيع أن يتعامل مع الفتن والمغريات والمثيرات في الحياة الدنيا من خلال «العصم»، دون أن يمسه أي خطر من ناحية هذه الفتن والمغريات. ومن الخطأ أن ندعوا الناس الى مقاطعة التعامل مع النار والكهرباء لأنها حارقة وصاعقة، ولكن من الضروري أن يكون التعامل مع النار والكهرباء من خلال العازل الذي يعصم الانسان من خطر النار والكهرباء.

كذلك لا يصح أن ندعوا الناس الى مقاطعة «الفتن»، ومن هذه الفتن أموال الناس وأولاده، وإنما يجب على الانسان أن يعصم نفسه في التعامل مع هذه الفتن والمثيرات والمغريات بمجموعة من العصم التي تحميه منها.

وهذه العصم اذا تكاملت في حياة الفرد والمجتمع تقوم بدور هام في تلطيف الغرائز وتعديلها وضبطها وتمكين صاحبها منها.

وهي تملك الانسان أهواءه وشهواته، كما ورد في النصوص الاسلامية.

والتعبير دقيق، فإن من الناس من تملكه أهواؤه وشهواته، ومن الناس من يملك أهواءه وشهواته. إذن لا يصح في دين الله المنع من دخول الدنيا ولكن من

(١) بحار الانوار ٩٤/ ١٩٧.

يدخل الدنيا يجب أن يملك هواه ويتمكن منه وهذا هو المقياس الفاصل بين الهوى والهدى في حياة الانسان.

وقد روي عن الامام الصادق عليه السّلام:

«من ملك نفسه اذا غضب، واذا رهب، واذا إشتهى حرم الله جسده على النار». (١)

وفي حديث آخر:

«اذا رغب، واذا رهب، واذا إشتهى، واذا غضب، واذا رضي حرم الله جسده على النار». (٢)

توضيح آخر
لدور العصم في حياة الانسان

ولما كانت هذه النقطة هي المحور الرئيس في هذا المقال فلابد من إعطاء توضيح أكثر لرسالة «العصمش ودورها في حياة الانسان.

وفيما يلي هذا التوضيح:

إنَّ الانسان كالحيوان تراكم من الغرائز والاهواء والشهوات، وتؤدي هذه الغرائز والاهواء دوراً أساسياً في حياة الانسان، فهي أقوى العوامل في حركة الانسا وسلوكه، ولولا الهوى لتعطلت حركة الانسان وسعيه. وكذلك الامر في الحيوان.

ويتميز الهوى عند الانسان عن الخيوان بأن الطاقة الغريزية عند الحيوان تتحدد غالباً بالاشباع، وأما في الانسان فلا يتوقف اذا أطلق لهواه العنان عند حد من الحدود. وكلما إستجاب الانسان لغرائزه وأهوائه أكثر تمادى في الطلب والالحاح.

ولذلك فإن طبيعة سلطان الهوى على الانسان ترشح الانسان لحياة تشبه حياة الحيوان.

(١) بحار الانوار ٧٨/ ٢٤٣.

(٢) بحار الانوار ٧١/ ٣٥٨.

فإن الحيوان يمارس شهـواته وغرلئزه من دون رادع ولا عاصم، والقـانون الوحيد الذي يحكم حياة الحيوان هو القوة، فإن القوني يفترس الضعيف، وليس هناك قانون آخر، والقوي خاضع للغريزة والهوى.

فالنظام الجمعي في حياة الحيوان يعطـي للقويي السيطرة على سائر الحيوان، ويعطي للغريزة السيطرة على القوى.

والانسان لطبيعة تركيبه الغـريزي مرشح لمثل هذا النظام، لو لـم يتدخل عامل العصم في تعديل الغرائز والاهواء وتنظيم حياة الانسان.

وهـذا النظام الحـاكـم في عـالم الحيـوان هـو ما يلخصـه القـرآن في كلمتـي «الطاغوت» و «الهوى».

فـإن الانسان اذا أطلـق لأهوائه العنـان، تحكم «الطـاغوت» فـي سائر النـاس وأستضعفهم ويتحكم «الهوى» في الطاغوت.

وهذا النسيج الإجتمـاعي الجاهلي يشبه الـى حد كبير النسيج القـائم في حياة الحيوان إلا أن الله تعالى أعد اللانسان لخلافته تعالى، وحمله رسالة الامانة الالهية، وهذه الرسالة التي أعد الله تعالـى الانسان لها تتطلب من الانسان أن لا تسترسل مع الهوى كما يسترسل الحيوان وألا تشغله الطيبات من متاع الدنيا كما تشغل البهيمة.

يقول أمير المؤمنين عليه السّلام:

«فما خلقه ليشغلني أكـل الطيبات كالبهيمة المربوطة همهـا علفها أو المرسلة شغلها تقّممها تكترش من أعلافها وتلهو عمـا يراد بها» ولكي يتمكن الانسان من أن ينهض بمسـؤولية الخلافة الالهيـة أودع الله تعالـى في نفس الانسان وفـي المجتمع مجموعـة من العصـم، وهذه العصم تكسـو غرائز الانسان فـلا يخرج الانسـان الى ساحـة الحياة كما يخرج الحيـوان بغرائز وشهوات مكشوفـة وعارية، وإنما تكسـوها العصم وتسترها.

ومن هذه العصم ما أودعها الله تعالى فـي عمق النفس بصورة تكوينية والتربية تعمقها وتكرسهـا أكثر في النفس كـالحياء والعفة والرحمـة فإن هذه العصم الثـلاثة

تكسوا الغريزة بشكل واضح وتلطفها .

فالغـريزة الجنسيـة في الحيوان والانسـان سواء ، إلا أنها فـي الحيوان مكشـوفة وعـارية وفـي الانسـان يكسوهـا الحيـاء والعفـة ، فيمنع الانسـان ممـا لا يمنع عـن الحيوان ، ليس لعجـز في الغريزة عنـد الانسان ، وإنما بسبب مـن عصمتي «الحياء و«العفة» فـإنهما يلطفان غريـزة الجنس كثيراص ويعـدلانها ويحددانها ويضبطـانها وتكفان الغريزة الجنسية وتلطفان إفرازها وعملها وكذلك «الرحمة» تقوم بدور كبير في تلطيف وتعديل غريزة الغضب .

فإن الانسـان والحيوان سـواء في غـريزة الغضـب إلا أن هذه الغـريزة مكسـوفة وعارية في الحيوان وتكسوها «الرحمة في الانسان» .

ومن هذه العصم مـا يكتسب الانسان ويقوم به وللتربيـة دور أساس في تمكين هذه العصم في حيـاة الانسان مثل الذكر والصلاة والصوم والتقـوى فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والـذكر مطردة للشيطان والصوم جنة مـن النار والتقوى لباس يستر الانسان ويحفظه من لدغ الذنوب والخطايا .

﴿ولباس التَّقوىٰ ذٰلك خير﴾ .

ومن العصم ما أودعه الله تعالى في حياة الانسان الاجتماعية كالجماعة المؤمنة والحياة الزوجيـة فإن الجماعة تحفظ المـؤمن من الانزلاق والسقوط والحيـاة الزوجية عصمة للزوجين ، وهذه ثلاث طوائف من العصم في النفس وفي المجتمع .

العصمة من الله

وقبل أن نبحث عن طائفة من مفردات العصم نودُ أن نذكر نقطة جديرة بالاهتمام وهي أن الله تعالـى مصدر كل عصمة في حياة الانسان ، ولولا أن اللـه تعالى يعصم الانسان في مزالق الهوى لما عصم الانسان شيء . فإن الانسان ضعيف اتجاه ضغط الهوى والفتن يقول تعالى :

﴿وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً﴾ . (النساء : ٢٨)

والاهواء قوية وفاعلة في نفس الانسان.

يقول القرآن على لسان إمرأة العزيز في قصة يوسف «إن النفس لأمارة بالسوء».

وأمام هذه الحالة المزدوجة من ضعف الانسان وقوة الهوى ليس للانسان إلا أن يعتصم بالله تعالى ليعصمه من السقوط والهلاك في مزالق الاهواء والفتن.

ولقد كان الرسل والانبياء وعباد الله الصالحون يعتصمون بالله اذا أراد الشيطان أن يداهمهم، وأحسوا بالضعف أمام قوة الهوى و إندفاعه.

يقول القرآن في قصة يوسف على لسان إمرأة العزيز، عندما لامها نساء قومها لما راودت يوسف عن نفسه:

﴿قالت فذٰلكنَّ الَّذي لمتنَّني فيه ولقد راوَدتُه عن نفسه فاستَعصم﴾. (يوسف: ٢٢)

والاستعصام هو طلب العصمة من الله تعالى. وقد إستعصم يوسف عليه السّلام بالله عندما راودته إمرأة العزيز عن نفسه، وحاصره الشيطان، وغالبه الهوى وهذه العصمة هو قوله تعالي في نفس السورة:

﴿ولقد همَّت به وهمَّ بها لولا أن رَءَا بُرهٰن ربّه كذٰلك لِنَصرفَ عنه السّوء والفحشاء إنَّه من عبادنا المخلِصين﴾ فجاءه برهان من ربه، وصرف الله عنه السوء والفحشاء. ويعلل القرآن نزول هذا البرهان على يوسف عليه السّلام، وصرف السوء والفحشاء عنه بأنه كان من عباد الله المخلصين إذن على الانسان في لحظات ضعفه، أن يلجأ الى الله تعالى ليعصمه ويحفظه، والله تعالى العاصم، الساتر، الواقي، الذي يعصم عباده، ويسترهم، ويصرف عنهم السوء والفحشاء، ويطرد عنهم الشيطان.

وقد ورد في نصوص الادعية الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام الاشارة الى الاعتصام بالله تعالى كثيراً وبصورة مؤكدة، وفيما يلي نشير الى طائفة من هذه النصوص: ففي المناجاة لأمير المؤمنين عليه السّلام:

«الهي لا سبيل الى الاحتراس من الذنب إلا بعصمتك، ولا وصول الى عمل

الخيرات إلا بمشيئتك، فكيف لي بإفادة ما أسلفتني فيه مشيئتك، وكيف بالاحتراس من الذنب ما لم تدركني فيه عصمتك». [(١)]

وفي المناجاة للامام زين العابدين عليه السّلام :

«إلهي في هذه الدنيا هموم وأحزان وغموم وبلاء، وفي الاخرة حساب وعقاب، فأين الراحة والفرج، إلهي خلقتني بغير أمري، وتمنيتني بغير إذني، ووكلت في عدواً لي له عليّ سلطان، يسلك بي البلايا مغروراً، وقلت لي إستمسك، فكيف أستمسك إن لم تمسكني؟!». [(٢)]

وكان من دعاء علي بن الحسين عليهما السّلام في يوم عرفة :

«وهب لي عصمة، تدنيني من خشيتك، وتقطعني عن ركوب محارمك وتفكني من أسر العظائم، وهب لي التطهير من دنس العصيان». [(٣)]

وأيضاً عن الامام زين العابدين عليه السّلام :

«إلهي لا حول لي ولا قوة إلا بقدرتك، ولا نجاة لي من مكاره الدنيا إلا بعصمتك، فأسألك ببلاغة حكمتك ونفاذ مشيئتك أن لا تجعلني لغير جودك متعرضاً... ومن البلايا واقياً، وعن المعاصي عاصماً». [(٤)]

وأيضاً عن الامام زين العابدين عليه السّلام :

«إلهي فلا تخلنا من تحمايتك، ولا تعرنا من رعايتك... أسألك بأهل خاصتك من ملائكتك والصالحين من بريتك، أن تجعل علينا واقية تنجينا من الهلكات، وتجنبنا من الآفات... وأن تحوينا في الحناف عصمتك». [(٥)]

وأيضاً عن الامام زين العابدين عليه السّلام في مناجاة المعتصمين :

(١) بحار الانوار ٩٤/ ١٠٥ .

(٢) بحار الانوار ٩٤/ ١٢٩ .

(٣) الصحيفة دعاء : ٤٧ .

(٤) بحار الانوار ٩٤/ ١٤٣ .

(٥) بحار الانوار ٩٤/ ١٩٢ .

«إلهي أكنتنا داراً حفرت لنا حفر مكرها ... بك نعتصم من الاغترار بزخارف زينتها ... إلهي فزهدنا فيها وسلمنا منها بتوفيقك وعصمتك ... » .[١]

وفي مناجاة الزاهدين عن الامام زين العابدين عليه السّلام:

«وأحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن جميع نواحينا ، حفظاً عاصماً من معصيتك ، هادياً الى طاعتك مستعملاً لمحبتك» .[٢]

وعن الامام زين العابدين عليه السّلام أيضاً :

«اللهم خذ لنفسك من نفسي ما يخلصها ، وأين لنفسي من نفسي ما يصلحها ، فإن نفسي هالكة أو تعصمها» .[٣]

ثلاث طوائف من العصم

قلنا إن الله تعالى أودع في النفس والمجتمع ثلاث طوائف من العصم :

١ - العصم المغروسة في عمق النفس .

٢ - العصم التي يكتسبها الانسان ويعمل بها .

٣ - العصم القائمة في واقع الحياة .

وفي ما يلي نحاول زن نستعرض بعض مفردات العصم في حياة الانسان في النفس والمجتمع من هذه الطوائف الثلاثة من العصم .

أولاً- العصم المغروسة في عمق النفس «العصم الذاتية»

ومن أعظم هذه العصم «الضمير» . وهو آخر قلعة يقاوم الاهواء والفتن في نفس الانسان وقد تسقط القلاع التي يحتمي بها الانسان من شر الهوى والشيطان واحدة بعد الاخرى ويبقى الضمير يقاوم الجريمة ، ويردع صاحبه عنها ، فاذا سقط الضمير،

(١) بحار الانوار ٩٤/ ١٥٢ .

(٢) الصحيفة دعاء : ٦ «من دعائه عند الصباح والمساء» .

(٣) الصحيفة دعاء : ١٩ .

فقد نفذ ما في النفس من مقاومة وصمود.

ولذلك يعتبر الضمير أقوى العصم التي تعصم الانسان وحفظه، والتربية لا تأتي بالضمير، ولكن تكرسه، وتعمقه، وتوظفه لتعديل سلوك الانسان. والعفة عصمة أخرى أودعها الله تعالى في نفس الانسان. وهي حالة مغروسة في عمق النفس، لا تأتي بها التربية، ولكن التربية تعمقها وتوضفها لتعديل وضبط الغريزة الجنسية.

وتوجد في نفوس أكثر الناس على درجات مختلفة، وتقوى، وتضعف بإختلاف التربية، والوسط الذي يعيشه الانسان، والممارسات التي يمارسها الانسان.

وقد تسقط هذه العصمة بصورة نهائية في حياة الانسان فتبقى الغريزة الجنسية مكشوفة وعارية، كما هي في الحيوان.

والحياء عصمة في مقابل حالة الصلف، وهذه العصمة نابعة من داخل النفس ولها دور واسع في ضبط الغرائز وتلطيفها وتحديدها.

يقول الامام الصادق عليه السّلام على ما في رواية المفضل بن عمرو، في حديث التوحيد:

«أنظر يا مفضل الى ما خص به الانسان، دون جميع الحيوان من هذا الخلق الجليل قدره العظيم غناؤه، أعني «الحياء» فلولاه لم يقر ضيف، ولم يوق بالعداة، ولم تقض الحوائج، ولم يتحر الجميل، ولم يتنكب القبيح ف شيء من الاشياء، حتى أن كثيراً من الامور المفترضة إنما يفعل بالحياء. فإن في الناس من لولا الحياء لم يرع حق والديه، ولم يصل ذا رحم، ولم يؤد أمانة، ولم يعف عن فاحشة». [1]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

«إستحيوا من الله حق الحياء».

(١) بحار الانوار، كتاب التوحيد، حديث المفضل.

فقيل يا رسول الله ومن يستحي من الله حق الحياء؟

فقال من إستحيى من الله حق الحياء، فليكتب أجله بين عينيه، وليزهد في الدنيا وزينتها ويحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى» . [١]

وفي رواية أخرى. «رحم الله من إستحيى من الله حق الحياء فحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى» . [٢]

وقد روي عن علي عليه السّلام في هذا الشأن :

«الحياء بعيد عن الفعل القبيح» . [٣]

و«على قدر الحياء تكون العفة» . [٤]

وقد ورد التأكيد في النصوص الاسلامية في الاستحياء من الله تعالى والملكين الذي يراقبان الانسان في الخلوات.

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ليستح أحدكم من ملكيه الذين معه كما يستحي من رجلين صالحين من جيرانه، وهما معه بالليل والنهار» . [٥]

ومن وصية رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لأبي ذر:

«يا أبا ذر إستحي من الله، فإني والذي نفسي بيده لأضل حين أذهب الى الغائط متقنعاً بثوبي أستحي من الملكين الذين معي» . [٦]

والخوف من الله تعالى عصمة يعصم الانسان عن الذنوب، وقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام:

(١) بحار الانوار ٧٠/ ٣١٧ .

(٢) بحار الانوار ٧٠/ ٣٠٥ .

(٣) غرر الحكم .

(٤) غرر الحكم .

(٥) غرر الحكم .

(٦) كنز العمال ح٥٧٥١ .

«الخوف سجن النفس من الذنوب وردعها عن المعاصي». [١]

وعنه أيضاً عليه السّلام:

«نعم الحاجز عن المعاصي الخوف». [٢]

وعنه أيضاً عليه السّلام:

«خفْ الله خوف من ينشغل بالفكر قلبه فإن الخوف مطية الامن وسجن النفس عن المعاصي». [٣]

وعنه أيضاً عليه السّلام:

«من كثرت مخافته قلت آفته». [٤]

وعن الامام الصادق عليه السّلام في قوله تعالى:

﴿ولمن خاف مقام ربّه جنّتانِ﴾: من علم أن الله يراه، ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمله من خير أو شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الاعمال فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. [٥]

ثانياً- عصم يكتسبها الانسان «العصم المكتسبة»

التقوى:

ومن أهم هذه العصم «التقوى». وقد عبر القرآن الكريم عنه بـ«اللباس» يقول تعالى:

﴿يـٰبَني ءَادم قد أنزلنا عليكم لباساً يُواري سوءَاتكم وريشاً ولباس التَّقوىٰ ذٰلك خير﴾. (الاعراف: ٢٦)

(١) غرر الحكم.

(٢) غرر الحكم.

(٣) غرر الحكم.

(٤) غرر الحكم.

(٥) أصول الكافي ٢/ ٧١.

وهو تعبير دقيق، فاللباس الذي يأله الناس يستر سوآت الجسم، والتقوى يستر سوأة الروح والنفس، واللباس يحمي جسم الانسان مما يلاقيه من حر وبرد وأذى كذلك التقوى يحمي روح الانسان ونفسه وعقله من الفتن ومكايد الشيطان ومغريات الدنيا.

روى «القمي» عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام في تفسير آية التقوى من سورة الاعراف:

«فأما اللباس فالثياب التي يلبسون، وأما لباس التقوى فالعفاف، لأن العفيف لا تبدو له عورة، وإن كان عارياً من الثياب والفاجر بادي العورة، وإن كان كاسياً من الثياب». (١)

وفي هذا المعنى روي عن الامام علي عليه السّلام:

«ثوب التقى أشرف الثوب». (٢)

وعن علي عليه السّلام أيضاً:

«من تعرى من لباس التقوى لم يستر بشيء». (٣)

ومن روائع كلمات الامام في «التقوى» قوله عليه السّلام:

«أوصيكم بتقوى الله ... أشعروها قلوبكم وأرضحوا بها ذنوبكم، ألا فصونوها وصونوا بها». (٤)

فإن اللباس كما يصون الانسان كذلك علي الانسان أن يصون لباسه فلكي يستفيد الانسان من خدمة ملابسه وثيابه عليه أن يخدمها، كذلك التقوى يصون الانسان ويصونها الانسان.

وفي بعض النصوص الاسلامية ورد التعبير عن التقوى «بالحصن» و «الجنة»

(١) تفسير القمي.

(٢) غرر الحكم للآمدي «حرف التاء».

(٣) بحار الانوار ٧٧/ ٢٣٦.

(٤) نهج البلاغة خطبة رقم: ١٩١.

و «المنعة» و«العصمة» .

وكل ذلك يؤكد المعنى الذي أشرنا اليه في عصمة التقوى .

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

«إن الله عز ذكره يعصم من أطاعه ، ولا يعصم به من عصاه» . (١)

عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام :

«التقوى حصن حصين لمن لجأ اليه» . (٢)

وروي عنه عليه السّلام أيضاً : «إلجأوا الى التقوى فإنها جنة منعة . من لجأ اليها حصنته ، ومن إعتصم بها إعتصمته» . (٣)

وعن علي عليه السّلام :

«أن التقوى عصمة لك في حياتك وزلفى لك بعد مماتك» . (٤)

وعن الصادق عليه السّلام :

«أيما مؤمن أقبل ما يحب الله ، أقبل الله عليه قبل كل ما يحب ، وسن إعتصم بالله بتقواه عصمه الله ، ومن أقبل الله عليه وعصمه لم يبال لو سقطت السماء على الارض ، وإن نزلت نازلة على أهل الارض فتشملهم بلية كان في حرز الله بالتقوى من كل بلية ، أليس الله تعالى يقول : ﴿إنَّ المتَّقين في مقامٍ أمينٍ﴾ . (٥)

وعن علي عليه السّلام :

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإنها الزمام والقوام فتمسكوا بوثائقها واعتصموا بحقائقها ، تؤل بكم الى أكنان الدعة وأوطان السعة» . (٦)

(١) روضة الكافي ٨/ ٨٢ .

(٢) غرر الحكم .

(٣) غرر الحكم .

(٤) غرر الحكم .

(٥) بحار الانوار ٧٠/ ٢٨٥ عده .

(٦) نهج البلاغة خطبة رقم : ١٩٥ .

وعن علي عليه السّلام أيضاً :

«واعتصموا بتقوى الله ، فإن لها حبلاً وثيقاً عروته ، ومعقلاً منيعاً ذروته» . (١)

وعن علي عليه السّلام أيضاً :

«التقوى قرنت بالعصمة» . (٢)

وعن علي عليه السّلام «الى أهل مصر» :

«عصمكم الله بالتقوى وثبتكم بالتقوى» . (٣)

وعن علي عليه السّلام:

«إن في سلطان الله عصمة لأمركم فأعطوه طاعتكم غير ملومة ولا مستكره بها» . (٤)

ويقول أمير المؤمنين علي عليه السّلام في التعريف بالتقوى :

«إعلموا عباد الله أن التقوى دار حصن عزيز والفجور دار حصن ذليل ، لا يمنع أهله ، ولا يحرز من لجأ اليه» . (٥)

وهذه النصوص تؤكد جميعاً هذه الخصلة الاساسية في التقوى ، وهي العصمة والوقاية من الاهواء والفتن والشياطين .

وهي مقتبسة جميعاً من كتاب الله يقول تعالى :

﴿إنَّ الَّذين اتَّقَوا إذا مسَّهم طـٰئِفٌ من الشَّيطـٰنِ تذكَّروا فإذا هم مبصرون﴾ . (الاعراف : ٢٠١)

فقد أودع الله تعالى في التقوى من النور والبصيرة ما لا يستطيع الشيطان أن يخترقه ، فاذا إقترب طائف من الشيطان «وليس الشيطان» من المتقين تذكروا سريعاً ،

(١) نهج البلاغة خطبة رقم : ١٩٠ .

(٢) غرر الحكم .

(٣) آمالي المفيد : ٤٩ .

(٤) نهج البلاغة خطبة رقم : ١٦٩ .

(٥) نهج البلاغة خطبة رقم : ١٥٧ .

وتنبهوا وبصورة مبكره، ومن دون تأخير، فاذا هم مبصرون، وعلى بينة من الامر، فيطردون الشيطان ووساوسه وإغرائه عنهم.

الذكر

ومن العصم الذكر:

ومعنى الذكر هو «التنبه» الى حضور الله تعالى، وإستشعار حضوره وسلطانه وعلمه وجلاله وجماله... في مقابل الغفلة وغياب القلب عن حضور الله. وأما ذكر الله تعالى باللسان فهو تعبير وبراز لاستشعار حضور الله ونعمته وجلاله وجماله.

ومن الواضح أن الذكر بهذا المعنى الذي بيناه من أهم العواصم التي تعصم الانسان من الوقوع في مزالق الهوى والفتنة.

فإن الانسان عندما يستشعر جلال الله تعالى وجماله وقوته وسلطانه وحضوره في قلبه ويعي ذلك يستحيل على الانسان أن يعصي الله تعالى أوينقاد للهوى، ويستجيب له. وعلى قدر إستشعار القلب لحضور الله تعالى يكون تأثير الذكر في عصمة الانسان ووقايته، وكلما يكون القلب أوعى لجلال الله وجماله وحضوره يكون الانسان أقوى على مقاومة الاهواء والاثارات والفتن ووساوس الشيطان.

عن الامام الباقر عليه السّلام:

«ثلاث من أشد ما عمل العباد: إنصاف المرء نفسه، ومواساة المرء أخاه، وذكر الله على كل حال، وهو أن يذكر الله عز وجل عند المعصية يهم بها، فيحول ذكر الله بينه وبين تلك المعصية، وهو قول الله عز وجل:

﴿إنَّ الَّذين اتَّقَوا إذا مسَّهم طـٰئِفٌ من الشَّيطـٰن تذكَّروا فإذا هم مبصرون﴾.[1]

وهذا هو الذكر الذي يعصم الانسان من الزيف. وقد ورد هذا المعنى في النصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام بصورة واسعة. وفيما يلي نذكر طائفة من

(١) بحار الانوار ٩٣/ ٣٧٩.

هذه النصوص التي تؤكد دور الذكر في عصمة الانسان :

في الحديث القدسي : «اذا علمت أن الغالب على عبدي الاشتغال بي نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي . فإذا كان عبدي كذلك فأراد أن يسهو حلت بينه وبين أن يسهو. أولئك أوليائي حقاً . أولئك الابطال حقاً» . (١)

وأيضاً في الحديث القدسي :

«اذا كان الغالب على العبد الاشتغال بي جعلت بغيته ولذته في ذكري ، فاذا جعلت بغيته ولذته في ذكري ... رفعت الحجاب بيني وبينه ، لا يسهوا اذا سها الناس أولئك كلامهم كلام الانبياء أولئك الابطال حقاً» . (٢)

وفي مناجاته له تعالى قال موسى بن عمران : يا رب أبعيد أنت مني فأناديك أم قريب فأناجيك . فأوحى الله جل جلاله : أنا حبيب من ذكرني ، أنا جليس عبدي حين يذكرني وأنا معه اذا دعاني» .

وعن علي عليه السّلام :

«من عمّر قلبه بدوام الذكر حسنت أفعاله في السر والجهر» .

وفي الحديث القدسي :

«أيما عبد إطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه» .

وعن علي عليه السّلام :

«عليكم بذكر الله فإنه نور القلوب» .

وعن علي عليه السّلام :

«الذكر نور ورشد والنسيان ظلمة وفقد» .

وعن علي عليه السّلام :

(١) بحار الانوار ٩٣/ ١٦٢ .

(٢) كنز العمال ح١٨٧٢ .

«أنه الله سبحـانه جعل الذكر جلاء للقلـوب، تسمع به بعد الوقـرة، وتبصرة به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة».

وعن علي عليه السّلام:

«ذكر الله مطردة الشيطان».

عن علي عليه السّلام:

«ذكر الله رأس مال كل مؤمن، وربحه السلامة من الشيطان».

عن علي عليه السّلام:

«ذكر الله دعامة الايمان، وعصمه من الشيطان».

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

«إن الشيطان واضـع خطمه على قلب إبـن آدم فاذا ذكر الله خنـس، واذا نسى التقم، فذلك الوسواس الخناس».

وقال نوف البكالي: رأيـت أمير المؤمنين صلوت الله عليه مولياً مبـادراً فقلت: أين تريد يـا مولاي؟ فقال: «دعني يـا نوف إن آمالي تقـدمني في المحبوب. فقلـت: يا مولاي وما آمالك؟ قال: قد علمها المأمول واستغنيت عن تبيينها لغيره، وكفى بالعبد أدباً، أن لا يشرك في نعمة وإربه غير ربه.

فقلت: يا أمير المـؤمنين إني خائف على نفسي من الشـره، والتطلع الى طمع من أطماع الدنيا، فقال لي: وأين أنت عن عصمة الخائفين، وكهف العارفين؟!.

فقلت: دلنـي عليه، قال: الله العلـي العظيم، تصل أملك بحسـن تفضله، وتقبل عليـه بهمك، وأعرض عـن النازلة في قلبـك، فرن أجلك بهـا، فأنا الضـامن موردها، وانقطع الى الله سبحانه فإنه يقول:

«وعزتـي وجلالي لأقطعـن أمل كل من يـؤمل غيري بـاليأس، ولأكسونـه ثوب المذلة في الناس، ولابعدنه من قربي، ولاقطعنه عن وصلي ...».

ثم قال عليه وعلى آله السلام لي: يا نوف أُدع بهذا الدعاء:

«إلهي إن حمدتك فبمواهبك، وإن مجدتك فبمرادك، وإن قدستك فبقوتك،

وإن هللتك فبقـدرتك، وإن نظـرت فإلى رحمتـك، وإن عضضت فعلـيّ نعمتك. إلهي إه ممـن لم يشغله الولـوع بذكرك، ولـم يـزده السفر بقربـك، كانت حياتـه عليه ميته، وميتته عليه حسرة...». [١]

الوعي والعبرة

ومن العصم الوعي والحكمة:

عن علي عليه السّلام:

«لا تخلُ نفسك من فكر يزيدك حكمة وعبرة يفيدك عصمة». [٢]

وعن علي عليه السّلام:

«الاعتبار يفيد العصمة». [٣]

عن علي عليه السّلام:

«الحكمة عصمة والعصمة نعمة». [٤]

عن علي عليه السّلام:

«قرنت الحكمة، بالعصمة». [٥]

التمسك بالقرآن

ومن العصم التمسك بالقرآن وقراءته ووعيه والتأمل فيه:

عن علي عليه السّلام:

(١) بحار الانوار ٩٤/ ٩٤و٩٥.

(٢) غرر الحكم.

(٣) غرر الحكم.

(٤) غرر الحكم.

(٥) غرر الحكم.

«عليكم بكتاب الله فرنه الحبل المتين، والعصمة للمتمسك». [(١)]

وكان من دعاء الامام السجاد عليه السّلام:

«لا تنال أيدي الهلكات من تعلق بعروة عصمته». [(٢)]

ومن العصم الصدق في التعامل مع الله

عن الباقر عليه السّلام:

«اذا علم الله تعالي حسن نية من أحد إكتنفه بالعصمة». [(٣)]

والتربية الصالحة «من العصم»

يقول الامام الحسين عليه السّلام:

«ألا وإن الدعي إبن الدعي قد ركز بين إثنين بين السلة والذلة. وهيهات منا الذلة يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت».

الاستعاذة

ومن العصم الاستعاذة بالله من وساوس الشيطان وسلطان الهوى و إثارات الفتن، فإن الانسان ضعيف، وسلطان الهوى على الانسان نافذ وقوي، والشيطان يرقب نقاط الضعف في حركته ويرصده عند كل مزلق من مزالق الهوى، وعند كل فتنة، فاذا إستعاذ الانسان بالله ودعى الله تعالى الى أن يعصمه من شرور نفسه ووساوس الشيطان وفتن الدنيا، وكان صادقاً في إستعاذته بالله و إعتصامه به تعالي عصمه الله ووقاه من مزالق الهوى وفتن الدنيا ووساوس الشيطان. يقول تعالى ﴿وإمّا يَنزَغَنّك من الشَّيطٰن نَزغٌ فاستعذ باللّه إنّه سميعٌ عليمٌ*إنَّ الَّذين ءَامنوا إذا مسَّهم

(١) نهج البلاغة خطبة رقم: ١٥٦.

(٢) الصحيفة دعاء: ٤٢.

(٣) بحار الانوار ٧٨/ ١٨٨.

طـٰئِفٌ من الشَّيطـٰن تذكَّروا فإذا هم مبصرون﴾ . (الاعراف : ٢٠٠-٢٠١)

الصلاة :

ومن العصم في حياة المؤمنين الصلاة تعصم عن الفحشاء والمنكر يقول تعالى : ﴿إنَّ الصَّلوٰة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر﴾ .

ثالثاً- العصم الموضوعية

وهناك طائفة ثالثة من العصم في واقع حياة الانسان الموضوعي ، خارج دائرة النفس ، خلقها الله تعالى في المجتمع لحماية الانسان وعصمته ، ووقايته من مضلات الفتن ومغرياتها ، ومن الاهواءوالشياطين ، ونذكر بعض الامثلة على هذه العصم . من هذه العصم النظام السياسي والاداري الذي ينفذ أحكام الله تعالى في حياة الانسان ، فإن لهذا النظام دور كبير وواسع في إيقاف المنكرات ، وردع الناس عن إرتكاب الجرائم والمحرمات وتجاوز حدود الله تعالى ، وتكريس الحدود الالهية في حياة المجتمع .

وقد ورد في النصوص الاسلامية كلمات و إشارات كثيرة في هذا الامر منها ما روى الصدوق في «علل الشرائع» عن الفضل بن شاذات في حديث طويل عن الامام . جاء فيه «فإن قال : فلم جعل أولي الامر، وأمر بطاعتهم؟ قيل لعلل كثيرة :

منها إن الخلق لما وقفوا على حد محدود ، وأمروا أن لا يتعدوا ذلك الحد لما فيه من فسادهم ، لم يكن يثبت ذلك ولا يقوم إلا بأن يجعل عليهم فيه أميناً يمنعهم عن التعدي والدخول فيما خطر عليهم ، لأنه لو لم يكن كذلك لكان أحد لا يترك لذته ومنفعته لفساد غيره ، فجعل عليهم فيما يمنعهم عن الفساد ويقيم فيهم الحدود والاحكام» .(١)

(١) علل الشرائع ١/ ٩٥١ح٩ب: ١٨٢ .

ومن هذه العصم «الجماعة المؤمنة» وصحبته الصالحين فإنها عاصمة للانسان من كثير من أنواع السقوط الخلقي والفكري .

وتؤكد النصوص الاسلامية دور الجماعة المؤمنة في حماية الانسان ووقايته وعصمته كثيراً . منها ما روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

«يد الله على الجماعة فاذا إشتذ الشاذ منهم إختطفه الشيطان، كما يختطف الذئب الشاة الشاذة من الغنم» . (١)

وروي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أيضاً :

«يد الله على الجماعة والشيطان مع من خالف الجماعة يركض» . (٢)

وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أيضاً :

«إتبعوا السواد الاعظم، يد الله على الجماعة، من شذ شذ في النار» . (٣)

ومن العصم الحياة الزوجية . وكل من الزوجين عصمة للآخر من الفتن والاهواء يقول تعالى :

﴿هنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنَّ﴾ .

والتعبير عن الحياة الزوجية باللباس تعبير دقيق ورائع عن دور كل من الزوجين، في الحياة الزوجية، في ستر الطرف الآخر وحمايته وعصمته، فالزوجات لباس للازواج يسترنهم من الفتن والاهواء، ووساوس الشيطان والازواج لباس لهن يسترونهن من الفتن والاهواء ووساوس الشيطان .

هل العلم عصمة؟

وفي نهاية هذا البحث لابد من طرح هذا السؤال فقد يتصور بعض الناس أن العلم لوحده عصمة، وهو أمر مرفوض، أثبتت التجارب خلافه في حياة الانسان

(١) كنز العمال ١/ ٢٠٧ .

(٢) كنز العمال ١/ ٢٠٧ .

(٣) كنز العمال ١/ ٢٠٦ .

مرات كثيرة .

فما أكثر ما كان العلماحاً بيد المجرميـن ، وما أكثر ما ينتفع المجرمون والطغاة مـن إنجازات العلـم الضخمة فـي أحكام قبضتهـم فـي الظلم والعـدوان وممارسـة الاجرام . أما عندما يقتـرن العلم بالدين والاخلاق فهو من غيـر شك من أهم أسباب العصمة في حياة الانسان .

دور الحضارات الجاهلية في تجريد الانسان من العصم

للضوابط والعصم دور كبير ومؤثر في حركة الانسان الى الله .

فـإن حـركـة الانسان الـى اللـه تعـالـى تتـم من خـلال «العقـل» و «القلـب» و«الفطرة» .

والجسد هو المـركب الذي يحمل هـذه القوى الثلاثة واذا كـان العقل والقلب والفطرة من العالم الاعلى فرن المركب الذي يحملها هو الجسد من عالم الارض .

وللجسد حاجات ومتطلبـات كما للعقل والقلب والفطرة حاجـاتها ومتطلباتها وحاجات الجسد ومتطلباته تختلف عن حاجات العقل والقلب والفطرة .

والهوى والغـرائز هي العوامـل التي تدفـع الانسان الى تـوفير حاجـات الجسد ومتطلباته . إلا أن الهوى بطبيعتـه لا يقف عند حد معقول ، وكلما إستـرسل الانسان في الاستجابة له يزداد إلحاحاً وطلباً .

وحركة الهوى عندما تتجاوز حدود الله تتجـه بالانسان الى جهة معاكسة لحركة الشطر الاول من شخصية الانسان ، وتنقضها وبالتالي تحبطها .

فتنقلـب حركـة الانسـان من السيـر الى اللـه الـى الهبوط الـى عـالم الحيـوان والسقوط .

ولكيلا ينحرف الانسان عن الكدح الى الله الـى السقوط لابد له من ظبط حركة الاهواء والشهوات وتحـديدها وتعديلها لئلا تتحـول حركة الاهوى من عامـل الخدمة للشطر المادي من الكينونة الانسانية الى عامل للسقوط .

فإن مهمة الهوى ودوره الايجابي في حياة الانسان هو تمكين الشطر الحيواني من شخصية الانسان «الجسم» من حمل الشطر السامي من شخصية الانسان «العقل والقلب والفطرة»، وتمكينه من أداء دوره في الحركة الصاعدة والكدح الى الله.

وعندما يسترسل الهوى في الطلب، وينقاد له الانسان، يتحول دور الهوى من دور إيجابي بناء الى دور سلبي تخريبي، ومن عامل يساعد الانسان على الصعود الى عامل للسقوط.

وهنا تبرز قيمة «العصم» في حياة الانسان فهي تقوم بدور مؤثر في تعديل حركة الهوى وضبطها والمحافظة على سلامة دورها في سلوك الانسان وحركته وفي الحقيقة إن حركة الانسان الكادحة والصاعدة الى الله تعالى تتألف من شطرين.

الشطر الاول وهو حركة العقل والقلب والفطرة الى الله، والشطر الثاني هو الدور الذي تؤديه العصم والضوابط في تحديد وضبط الاهواء، لكيلا تحول الاهواء حركة الانسان من الصعود الى السقوط.

واذا عرفنا هذا الدور الهام والاساس للعصم في سلوك الانسان نجد أن للرسالات الالهية تؤكد دائماً على تربية العصم، وتكريسها، وتأصيلها في حياة الانسان وسلوكه، وربط أهواء الانسان وشهواته بسلسة من العصم والضوابط السلوكية، بينما تعمل الحضارات الجاهلية في إتجاه معاكس تماماً لتجريد شخصية الانسان من هذه العصم والضوابط أو إضعافها و إطلاق العنان للاهواء والشهوات والغرائز، وتمكينها من حياة الانسان.

وطبيعي أن كل واحد من هذين الاتجاهين يمثل خطاً فكرياً هاماً.

فالاتجاه الاول يمثل الخط الصاعد الى الله في حياة الانسان.

والاتجاه الثاني يمثل خط الهبوط والسقوط في حياة الانسان. والاتجاه الثاني يكرس الشطر الحيواني من شخصية الانسان، بينما يكرس الاتجاه الاول الشطر السامي من شخصية الانسان.

وهذان خطان معروفـان في تاريخ الحضارة من قديـم ، ولكل منهما خصائص وإنجازاته ونتائجه في حياة الانسان .

الذنوب التي تهتك العصم

ومما لابـد أن نعرفه عن هـذا المقال العوامـل التي تهتك العصم ، وتـؤدي الى تعرية الاهواء ، وتجـريدها عن العصم . ولا شك أن العامل الحضـاري من أهم هذه العوامـل ، وللحضارات الجاهلية المـادية دور كبير فـي تعرية الانسان مـن العصم ، وإطلاق العنـان للاهواء لتتصرف وتتعـامل بصورة مكشـوفة ، وهذا حديـث واسع لا نريد أن ندخله الآن وقد أشرنا اليه قبل قليل .

والعامل الآخر لإنحسار العصم عن نفس الانسان هو الذنوب .

ودورها دور واسـع وكبير في هتـك العصم وإختراقهـا . فما لم يعـص الانسان تكون للمعصيـة حرمـة ورهبة يعصـم الانسان مـن إقترافهـا وممرستهـا . فاذا عصـى وررتكب الذنـب خفت هذه الحرمـة والرهبة التي تعصـم صاحبها عن الـذنب ، فاذا أعادهـا وكررها فقـدت حرمتها أكثـر من قبـل حتى تسقط بصـورة نهائية ، فـلا تبقى للعصـمة حرمة وهيبة ورهبة عن الانسان ، يقتـرفها كما يقترف سائر المباحات . وهذه العصمة التي تخف وتـرق في نفس الانسان كلما إرتكب معصيـة حتى يسقط بصورة نهائية هي عصمة «الخوف من الله» وليس من ريب أن عصمة «الخوف من الله» من أعظم العصم في نفس الانسان .

واذا سقطت هـذه العصم في نفـس الانسان إنكشف جـانب واسع مـن النفس للفتن ووساوس الشيطان بدون حصانـة وردع ، وتمكـن الشيطان من أن يغزو الانسان ويقتحم نفسه من دون رادع مؤثر .

وبنفس الاسلوب يتساقـط سائر العصم ، وتنحسر عن نفس الانسـان بالذنوب والمعاصـي ، فإن للـذنوب تأثيـراً سلبياً مبـاشراً على هـذه العصم جميعـاً ، يضعف «الضمير» ويضعف «الحياء» في نفس الانسان ، ويفقـد العصم المكتسبة تأثيرها في

حماية الانسان وحفظه.

وسبب ذلك واضح فإن إقتراف المعصية كما يرقق عصمة الخوف، كذلك يرقق عصمة الضمير والعفة وسائر العصم المفروسة في النفس، وكذلك يضعف الذنوب العصم الاخرى كالذكر والتقوى وعصمة الحياة الزوجية في نفس الانسان.

فإن هذه العصم جميعاً تبدأ بالتآكل من الداخل كلما إرتكب الانسان ذنباً، وتفقد درجة من تأثيرها وكفاءتها على ردع الانسان من الذنوب، حتى تفرغ بصورة نهائية من كل محتواها، وتفقد إمكانية الردع والضبط والعصمة بصورة كاملة وقد ورد في دعاء كميل الذي علمه أمير المؤمنين علي عليه السّلام لكميل بن زياد النخعي:

«اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم».

وهي إشارة الى هذا المعنى.

كما روي عن الامام علي بن الحسين زين العابدين عليه السّلام في هذا المعنى:

«الذنوب التي تهتك العصم شرب الخمر وللعب بالقمار، وتعاطي ما يضحك الناس من اللغو والمزاح، وذكر عيوب الناس ومجالسة أهل الريب». (١)

الستر

الحديث عن العصمة والوقاية يستتبع الحديث عن «الستر»، وهما مفهومان متقاربان. والله تعالى «عاصم» و «ستار» معاً، يعصم الانسان من الوقوع في شرك الشيطان والانقياد للهوى، كما يستر على الانسان سوآته وسيئاته.

ولولا أن الله تعالى يستر بفضله سوآت الناس وسيئاتهم لغر بعضهم من بعض، ولو إنكشف بواطن الناس، وأبليت السرائر في الدنيا، وعرف الناس ما يضمره ويريده الآخرون لتفتت شبكة العلاقات الاجتماعية، ولكن الله تعالى ستر سوآت الناس وسيئاتهم، وما يضمرون ويريدون من سوء، وما يفعلون من قبيح بفضله وستره، ولا

(١) معاني الاخبار للصدوق: ٢٧٠.

يظهر للناس من الناس -في الغالب- إلا الجميل وقد ورد في الدعاء «يا من ينشر الجميل ويستر القبيح»، والسوأة التي يسترها الله تعالى في نفس الانسان هي تراكم من السيئات والذنوب والمعاصي، تختزنه النفس وتتبلور وتجتمع بصورة خصال بشعة وكريهة ومنفرة داخل النفس كالحسد والطمع والجشع والحقد والكراهية ولو إطلع الانسا على مال في أنفسهم من خصال بشعة لولى بعضهم من بعض فراراً.

إلا أن الله تعالى -رأفة بعباده، ورحمة بهم، يستر ذنوبهم وسيئاتهم وسوآتهم، ويفتح لهم أبواب التوبة، وهم في حوزة ستر الله قبل الموت، قبل أن يأتي اليوم الذي تبلى فيه السرائر. وليس فقط يستر الله تعالى سيئاتنا وسوآتنا عن بعض، وإنما يستر سيئاتنا وسوآتنا حتى عن الملائكة أحياناً رأفة بعباده ورحمة بهم، فلا يطلع ملائكته على سوآت عباده وسيئاتهم لعلهم يتوبون، ويغفر لهم الله تعالى ذنوبهم، فلا تطلع ملائكته إلا على حسناتهم.

عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله الصادق عليه السّلام:

«إن المؤمنين اذا إعتنقا غمرتهما الرحمة، فاذا إلتزما، لا يريدان عرضاً من أعراض الدنيا، قيل لهما مغفور لكما، فأستأنفا، فاذا أقبلا على المسائلة، قالت الملائكة، بعضها لبعض، تنحو عنهما، فإن لهما ستراً وقد ستر الله عليهما. قال إسحاق فقلت: جعلت فداك لا يكتب عليهما لفظهما، وقد قال الله تعالى: ﴿ما يَلفِظُ من قولٍ إلاّ لديه رقيبٌ عتيدٌ﴾.

قال: فتنفس أبو عبد الله عليه السّلام الصعداء ثم بكى، وقال: يا إسحاق إن الله تعالى إنما أمر الملائكة أن تعتزل المؤمنين اذا إلتقيا إجلالاً لهما، وأنه إن كانت الملائكة لا تكتب لفضهما، ولا تعرف كلامهما فإنه يعرفه ويحفظه عليهما عالم السر وأخفى». [(١)]

والستر من صفات الله الحسنى و«الستار» من أسمائه الحسنى، تبارك وتعالى،

(١) معالم الزلفي للبحراني: ٣٢.

كما أن العصمة ن صفاته الحسنى والعاصم من أسمائه الحسنى .

و«العصمة» و «الستر» متقاربان فبالعصمة يستتر الانسان عن الاهواء والفتن والشيطان ، كما أن الستر يحفظ سوأة الانسان وقبائحه عن عيون الاخرين .

وكما أن الذنوب والمعاصي ن العوامل التي تهتك العصم عن الانسان ، كذلك الذنوب والمعاصي من العوامل التي تهتك ستر الله تعالى عن الانسان .

واذا تمادى الانسان في غيه وجهله هتك الله تعالى ستره الذي أرخى عليه ، فلا يستره بعد ذلك بشيء .

وفيما يلي نذكر طائفة من النصوص الاسلامية عن ستر الله تعالى على عباده وعن الذنوب التي تهتك ستر الله .

والذي يستعرض هذه الروايات بإمعان يجد أن الله تعالى لا يجعل بهتك الستر عن عباده ، رأفة بهم ، وإنما يمهلهم فاذا تمادوا في الذنوب والمعاصي أخذهم ببعض سيئاتهم ، ورفع عنهم طرفاً من ستره لعلهم يؤوبون الى ربهم ، ويتوبون ، فاذا تمادوا في غيهم وجهلهم هتك عنهم الستر فلا ينفعهم بعد ذلك شيء .

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

«للمؤمن إثنان وسبعون ستراً فاذا أذنب إنتهك عنه ستر، فإن تاب رده الله عليه ، وإن أبى إلا قدماً قدماً في المعاصي تهتكت عن أستاره ، فإن تاب ردها الله اليه ، ومع كل ستر سبعة ، فإن أبى إلا قدماً قدماً في المعاصي تهتكت أستاره ، وبقي بلا ستر ، وأوحى الله تعالى الى ملائكته أن إستروا عبدي بأجنحتكم ، فإن بني آدم يغيرون ولا يغيرون ، وأنا أغير ولا أغير، فإن أبى إلا قدماً قدماً في المعاصي شكت الملائكة الى ربها ورفعت أجنحتها وقالت يا رب إن عبدك هذا قد أقذرنا مما يأتي من الفواحش ما ظهر منها وما بطن . قال فيقول الله تعالى لهم كفوا أجنحتكم ، فلو عمل الخطيئة في سواد الليل أو في ضوء النهار ، أو في مغازة أو قعر بحر ، لأجراها الله تعالى على ألسنة الناس فاسألوا الله تعالى أن لا يهتك أستاركم» . (١)

(١) بحار الأنوار ٧٣/ ٣٦٣ .

وعن الامام أبي عبد الله الصادق عليه السّلام:

«إن لله تعالى على عبده المؤمن أربعين جنة، فمتى أذنب ذنباً رفع عنه جنة، فاذا عاب أخاه المؤمن بشيء يعلمه منه إنكشفت تلك الجنن فيبقى مهتوك الستر». (١)

وعن الامام أبي عبد الله الصادق عليه السّلام:

«إن لله تعالى على عبده المؤمن أربعين جنة، فمتى أذنب ذنباً رفع عنه جنة، فاذا عاب أخاه المؤمن بشيء يعلمه منه إنكشفت تلك الجنن فيبقى مهتوك الستر ولا خطوا المسانخة بين الجريمة والعقوبة» فيتضح في السماء.

«لاحظوا إن العقوبة من سنخ الجريمة» فيفتضح في السماء على ألسنة الملائكة والارض على ألسنة الناس ولا يرتكب ذنباً إلا ذكروه ويقول الملائكة الموكلون به يا ربنا قد بقي عبدك مهتوك الستر وقد أمرتنا بحفظه فيقول عزوجل ملائكتي لو أردت بهذا العبد خيراً ما فضحته فارفعوا أجنحتك عنه فوعزتي لا يؤول بعدها الى خير أبداً». (٢)

وعن أبي جعفر عليه السّلام:

«ما من عبد يعمل عملاً لا يرضاه الله إلا ستره الله عليه أولاً فاذا ثنى ستره الله عليه فاذا ثلث أهبط الله ملكاً في صورة آدمي يقول للناس فعل كذا وكذا». (٣)

فيفتضح في السماء على ألسنة الملائكة وفي الارض على ألسنة الناس، ولا يرتكب ذنباً إلا ذكروه.

المدينة المنورة في ٢٥ ذي القعدة ١٤١١هـ

محمد مهدي الآصفي

(١) تأملوا في نوع العقوبة فهي من نوع الجريمة، تهتك ستر الناس فيهتك الله تعالى ستره.

(٢) الخصائص للمفيد: ٢٢، وبحار الانوار ٧٣/ ٣٦١.

(٣) بحار الانوار ٧٣/ ٣٦١.

الصِّــراط

الصراط

﴿ويقول الإنسـٰن ءَإذا ما متُّ لسوف أُخرَج حيّـاً*أوَ لايذكر الإنسـٰن أنّا خلقنٰه من قبـل ولم يك شيئـاً*فوَ ربّك لنحشـرنَّهم والشَّيـٰطين ثـمَّ لَنُحضِرَنَّهم حـول جهنَّم جثيّاً*ثمَّ لننزعَنَّ مـن كلِّ شيعةٍ أيُّهم أشدُّ علَى الرَّحمـٰن عتيّاً*ثمَّ لَنحـنُ أعلمُ بالَّذين هم أَولـىٰ بها صِليّـاً *وإنْ منكم إلاّ واردُها كـان علىٰ ربِّك حَتمـاً مقضيّاً *ثـمَّ نُنَجّي الَّذين اتَّقَوا ونذُر الظّـٰلمينَ فيها جِثيّاً﴾ . (مريم : ٦٦-٧١)

صريح الـذكر الحكيم أن الناس كل النـاس يردون جهنم يوم القيامـة فيجتازها ويتخطاها المـؤمنون الصالحون ويقع فيهـا غيرهم «وإن منكم إلاّ واردهـا كان على ربّك حتماً مقضيّاً» .

قال السدي : سألت مرة الهمداني عن هذه الآية فحدثني أن عبد الله بن مسعود حدثهـم عن رسـول الله صلّى الله عليه وآلـه وسلّـم قـال : يرد النـاس النـار ثم يصـدرون بأعمالهم ، فأولهم كلمع البرق ثم كمر الريح ثم كحضر الفرس ثم كالراكب ثم كشد

الرجل ثم كمشيه. (١)

وروى غالب بن سليمان عن كثير بين زياد عن إبن سمية قال: إختلفنا في الورود، فقال قوم: لا يدخلها مؤمن، وقال آخرون: يدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا فلقيت جابر بن عبد الله فسألته فأومأ بإصبعيه الى أُذينه وقال: صمتاً إن لم أكن سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: الورود الدخول، لا يبقى بر ولا فاجر إلا يدخلها، فيكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم حتى أن للنار ضجيجاً من بردها، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً. (٢)

ومن خلال الورود في جهنم يدخل المؤمنون والصالحون الجنة فيكون طريقهم الى الجنة عبر جهنم.

والطريق الذي يعبر عليه الناس الى الجنة عبر جهنم هو «الصراط» وهو من عقبات يوم القيامة.

والصراط الذي يسلكه الناس عبر جهنم الى الجنة دقيق وصعب.

روى الطبرسي في تفسيره عن الامام الصادق عليه السّلام: الصراط أدق من الشعرة وأحد من السيف، فمنهم من يمر عليه مثل البرق ومنهم من يمر عليه مثل عدو الفرس ومنهم من يمر عليه ماشياً ومنهم من يمر عليه حبواً ومنهم من يمر عليه متعلقاً، فتأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً. (٣)

فما هو هذا الصراط؟

والى ماذا يرمز الصراط؟

ولماذا عبر جهنم الى الجنة؟

ولماذا يسرع عليه من يسرع حتى يكاد يكون كالبرق الخاطف ويتلكأ عليه من

(١) نور الثقلين٣/ ٣٥٣.

(٢) مجمع البيان٣/ ٥٢٥.

(٣) نور الثقلين٣/ ٣٥٣-٣٥٤.

يتلكأ حتى يكاد أن يسقط في جهنم .

تلك وغيرها أسئلة نحاول أن نجيب عليها في هذه المقالة .

الصراط والسبيل في القرآن

الصراط هو الطريق، والطريق هو الفاصل ما بين نقطتين يطويها المتحرك من نقطة الى أخرى، وقد يكون هذا الفاصل مكانياً وتكون الحركة في المكان كالمسافة ما بين مدينتين على الارض وقد يكون الفاصل فاصلاً معنوياً كما أن الدراسة طريق لطلب العلم وتهذيب النفس طريق الانسان الى الكمال .

والصراط الى الله هو الصراط المستقيم الذي يوصل الانسان الى الله وهو صراط التوحيد والعبودية والعمل الصالح والتقوى .

وهو صراط واحد لا تعدد فيه ولا يمكن أن يتعدد، فهو الخط المستقيم بين الانسان وبين الله تعالى .

ولذلك لم ترد كلمة الصراط على نحو الجمع، في القرآن الكريم، وكلما ورد من هذه المادة في القرآن ورد على نحو الأفراد :

﴿إهدنا الصِّراط المستقيمَ*صراط الَّذين أنعمت عليهم﴾ . (الفاتحة : ٦-٧)

﴿وإذاً لآتينـٰهم من لدنّا أجراً عظيماً *ولهدَينـٰهم صراطاً مستقيماً﴾ . (النساء : ٦٧-٦٨)

والصراط المستقيم الى الله ينطوي على سبل كثيرة، كلها تحقق معنى العبودية لله تعالى وتوحيد الله، ولكن على مناهج مختلفة .

فلكل إنسان طريقه الخاص به في معرفة الله ولكل شريعة من شرائع الله سبيل خاص في تحقيق العبودية لله تعالى كما أن هناك أكثر من سبيل أمام أي إنسان لتحقيق الطاعة والعبودية .

ولكن على كل حال فلن يكون هناك صراط الى الله تعالى أكثر من صراط واحد وهو توحيد الله تعالى بالعبودية والطاعة .

ولذلـك وردت كلمة السبيل علـي نحو الجمع كثيراً فـي القرآن الكريـم بعكس الصراط الذي ورد دائماً على نحو الافراد.

يقول تعالى:

﴿يهدي به اللّه من اتَّبع رضوانه سُبل السَّلـٰم﴾. (المائدة: ١٦)

﴿ثمَّ كُلي من كلِّ الثَّمرات فاسلُكي سُبل ربِّكِ ذُللاً﴾. (النحل: ٦٩)

﴿وما لنا ألاّ نتوكَّل عَلَى اللّه وقد هدٰينا سُبلنا﴾. (إبراهيم: ١٢)

الصراط المستقيم

وبعـد هذا التفـريـق بيـن معنى الصـراط والسبيـل نتسـاءل ما هـو: «الصـراط المستقيم الى الله».

فلا شك أن للصـراط المستقيم شأناً كبيـراً في حياة الانسان ويكفـي في أهمية الصراط المستقيم أنه أهم دعاء وأعظم دعاء يجب على الانسان في الصلاة أن يكررّه عشر مرات على الاقل، على نحو الوجـوب وذلك في قوله تعالى: ﴿إهدنا الصِّراط المستقيم*صـراط الَّذين أنعمت عليهـم غير المغضوب عليهم ولا الضّـالّين﴾. (من سورة الفاتحة)

فلا تصح صلاة من غير سورة الفاتحة وأهـم ما في هذه السورة المباركة هو هذا الدعاء الجليل الوارد في هذه السورة المباركة.

فما هو الصراط المستقيم؟

وما هي العلاقة بين الصراط المستقيم في هذه الدنيا والصراط في الآخرة.

إن الغاية التـي ينتهي إليها الانسان في حركتـه النامية والتكاملية الى اللـه تعالى هي معرفة الله ولقاء الله.

ولا يصل الانسان الى هذه الغـاية إلا عبر حركة كادحة مريـرة داخل نفسه وعبر شهواته وأهوائه للسيطرة على أهوائه وشهواته والتحكم فيها، وتحكيم إرادة الله تعالى على أهوائه وغرائزه وإخلاص النية لله تعالى والعبودية والطاعة، وهذه الحركة الشاقة

تتم داخل النفس .

وتتطابق هذه الحركة مع حركة أخرى في واقع الحياة تتسم بالتقوى والعمل الصالح والسير على نهج الله تعالى .

وهذا هو «الصراط المستقيم» في حياة الانسان داخل نفسه وخارجها .

ويقع هذا الصراط المستقيم وسط سبل كثيرة متفرقة ومتوزعة على اليمين والشمال من سبل الضلال ، وكل هذه السبل تؤدي الى الانحراف عن صراط الله المستقيم .

يقول تعالى :

﴿وأنَّ هـٰذا صراطي مُستقيماً فاتَّبعوه ولا تتَّبعوا السُّبل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصّيٰكم به لعلَّكم تتَّقون﴾ . (الانعام : ١٥٣)

وهذا الصراط المستقيم وسط هذه السبل داخل النفس وفي واقع الحياة ، هو الذي يوصل الانسان الى الغاية التي خلقه الله تعالى لها ، وسائر هذه السبل إنحراف وضلال عن هذه الغاية .

عن جابر بن عبد الله قال : كنا جلوساً عند النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فخطّ خطاً هكذا أمامه ، فقال : هذا سبيل الله ، وخطين عن يمينه وخطين عن شماله ، وقال : هذا سبيل الشيطان ثم وضع يده في الخط الاوسط وتلا هذا الآية .

﴿وأنَّ هـٰذا صراطي مُستقيماً فاتَّبعوه﴾ . (١)

الصراط المستقيم عبر جحيم الأهواء والشهوات

وعلى هذا الصراط المستقيم يجتاز الانسان الحي ، الدنيا وما فيها من إغراءات ، وشهوات وأهواء الى الله تعالى وهذه الشهوات والأهواء هي النار الحارقة

(١) الدر المنثور٣/ ٥٦ .

التي تجسد الصورة الدنيوية لجهنم ، إن الحياة الدنيا ، ليست بجهنم ، ولكن التعلق بهذه الحياة الدنيا ، والانصراف اليها والانغماس فيها ، والوقوع تحت نفوذها وسلطانها هي جحيم الانسان في هذه الدنيا ، وكذلك شهوات الانسان وأهواؤه وغضبه و إنفعالاته النفسية عندما يتملك أمره وتسيطر عليه هي الجحيم الذي يحترق فيه الانسان في هذه الدنيا .

وقد ورد في الحديث عن الامام أمير المؤمنين عليه السّلام : الغضب نار موقدة من كظمه أطفأها ، ومن أطلقه كان أول محترق بها .(١)

ونحن هنا في هذا الحياة الدنيا لا نشعر بالصفة الواقعية لهذه التعلقات والشهوات ولو كشف عن عيوننا الغطاء لرأينا حريق هذه الشهوات والاهواء والتعلقات والانفعالات عندما تمتلك أمر الانسان في نفسه .

يقول تعالى : ﴿**إنَّ الَّذين يأكلون أموال اليتٰمىٰ ظُلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلَون سعيراً**﴾ . (النساء : ١٠)

وهذه النار هي أكل أموال اليتامى بالباطل وليست من الاستعارة في شيء ، و إنما هي من الحقيقة التي أخفيت عنا في هذه الدنيا .

وعلى الانسان أن يقطع الطريق الى اللـه تعالى وسط هذه الحرائق ، من دون أن يحترق أو تؤذيه النار أو تحرق أطرافه ، و «الصراط المستقيم» هو وحده الذي يضمن للانسان العبور من وسط هذه الحرائق .

فالصراط المستقيم -إذن- في حياة الانسان جسر على جهنم الحياة الدنيا ، إذا وضع الانسان خُطاهُ عليه لم تؤذه جهنم الحياة الدنيا ، واذا تجاوزه وقع في وسط هذه الحرائق وابتلعته .

إن شهوات الانسان وأهواءه صورة دنيا عن جهنم الآخرة .

فإن جهنم لا تزال تطلب المزيد من الكافرين ، وكلما ألقى الله تعالى فيها

(١) مستدرك الوسائل ٢/ ٣٢٦ .

فوجاً سألها: ﴿**هلِ امتلأتِ وتقول هل من مزيد**﴾ . (ق : ٣٠)

كذلك نفس الانسان لا تشبع ولا تنفد حاجتها الى حطام الدنيا، ولو أن الله تعالى أعطى كنوز الارض لشخص يطلب المزيد ويسعى الى المزيد حتى يبلغ الانسان حداً يدعي الربوبية والإلوهية على وجه الارض، ويتصدى لغضب سلطان الله تعالى وحاكميته على حياة الانسان.

فالحركة في الحياة الدنيا، إذن، حركة في وسط جهنم لو كشف الغطاء عن أعيننا، ومن عجب أن العبور من وسط هذا الجحيم هي الطريق الى الله تعالى.

وفي هذا العبور، هناك ناس يعبرون الحياة الدنيا الى الله تعالى، يعيشون مع الناس ويتزوجون، ويزوجون، ويتمتعون بمتاع الحياة الدنيا، دون أن تلوثهم الحياة الدنيا، ودون أن تصرفهم عن الله تعالى حتى لحظة واحدة.

يقول تعالى: ﴿**رجال لا تلهيهم تجٰرةٌ ولا بيعٌ عن ذكر اللّه وإقام الصَّلوٰة وإيتاءَ الزَّكوٰة يخافون يوماً تتقلَّب فيه القلوب والأبصٰر**﴾ . (النور: ٣٧)

وهؤلاء لم يعتزلوا الحياة الدنيا وإنما هم يمارسون التجارة والبيع ولكن لم يلههم ذلك عن ذكر الله وإقام الصلاة حتى لحظة واحدة.

ويتمتعون في الدنيا بما يتمتع به الآخرون ولكن متع الدنيا لا تربطهم بالدنيا ولا تصرفهم عن الله.

وفي قبال هؤلاء هناك طبقة أخرى يدخلون الحياة الدنيا فتشدهم اليها شداً وثيقاً، وتصرفهم عن الله تعالى صرفاً كاملاً، وتحجب قلوبهم وصدورهم عن الله.

وبين أولئك وهؤلاء طبقات ودرجات من الناس والذي يشترك فيه الناس جميعاً هو الدخول في الحياة الدنيا والذي يختلف فيه الناس هو درجة تعلقهم وإرتباطهم بالحياة الدنيا عند العبور من هذه الحياة الى الله تعالى، كما أن الذي يشترك فيه الناس جميعاً أن الطريق الى الله تعالى ينحصر في العبور من وسط هذه الدنيا، ومن بين هذه الشهوات والغرائز والأهواء.

وقد رسم الله تعالي للانسان طريقاً اليه وسط هذه الدنيا وما يحفّها من أهواء

وشهوات وذلك الطريق هو «الطريق المستقيم»، صراط العبودية والتوحيد والتقوى، فاذا سلك اليه هذا الطريق فسوف يتمكن من تجاوز الدنيا دون أن يتعلق بشيء منها ودون أن تصرفه الدنيا عن الله تعالى أو تحجبه عنه، واذا شط الى اليمين واليسار فسوف تشده الدنيا اليها وتجذبه وتصرفه عن الله تعالى وتحجبه عنه، وعلى قدر إستقامة الانسان على الصراط المستقيم يكون نجاحه أو فشله في هذه الحركة الشاقة الى الله تعالى.

الصور المحسوسة لأعمالنا في الآخرة

ولهذا الصراط الذي يسلكه الانسان في الحياة الدنيا الى الله تعالى صورة أخرى محسوسة في الآخرة... هي حقيقة وباطن وواقع سلوك الانسان في الدنيا.

وليس من شك أن لأعمال الانسان ظاهراً نراه في هذه الدنيا وباطناً يتجسد لنا في الآخرة بصورة محسوسة، فنحن لا نرى من الصلاة هنا غير ظاهرها من القيام والركوع والسجود، وأما روح الصلاة وباطنها الذي هو إقبال المصلي على الله تعالى في صلاته وخشوعه وحضور قلبه بين يدي الله تعالى وإنشداده بالله في المناجاة والدعاء فهو من الغيب الذي لانحسُّ به نحن في صلاة الناس، وفي يوم القيامة يتجسد هذا الواقع الغيبي للصلاة في صورة محسوسة، كما يتجسد سائر أعمالنا من حسنات وسيئات في صور محسوسة، ويقدم الينا في الآخرة.

وفي الحقيقة أن الجزاء في الآخرة ليس أمراً خارجاً عن حقيقة أعمالنا يجزينا الله تعالى به على أعمالنا، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وإنما هو حقيقة أعمالنا تعود الينا في الآخرة لا نعرفها هنا.

وعذاب جهنم ونعيم الجنة إنما هو أعمالنا تعود الينا في الآخرة، بتلك الصورة، وهي الصورة الحقيقية لأعمالنا وليس شيئاً خارجاً عن ماهية وحقيقة أعمالنا.

يقول تعالى:

﴿يوم تجد كـلُّ نفس ما عَمِلَت من خير محضـراً وما عملت من سوءٍ تَـوَدُّ لو أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ . (آل عمران : ٣٠)

﴿ووجدوا ما عَمِلوا حاضراً ولا يَظلِمُ ربُّك أحداً﴾ . (الكهف : ٤٩)

والتعقيب في هـذه الآية الكريمة بقوله تعالى : «ولا يظلم ربـك أحداً» ملفت للنظر، فـإن العقاب الـذي يصبه الله تعالـى على الكـافريـن والمنافقيـن إنما هـو أعمالهم التي تعود اليهم يوم القيامة، ويجدونها حاضرةً لديهم، ولم يظلم الله تعالى عباده بشيء «ولا يظلم ربك أحداً» وإنما الناس هم الذين يظلمون أنفسهم.

﴿وما ربُّك بظلّـٰم للعبيد﴾ . (فصلت : ٤٦)

ولا حجة لأحد على الله تعالى : ﴿قل فلِلّه الحجَّة البالغةُ﴾ . (الانعام : ١٤٩)

يقـول تعـالـى : ﴿لنـا أعمـٰلُنا ولكـم أعمـٰلُكم لا حُجَّـةَ بيننـا وبينكم﴾ . (الشورى : ١٥)

فاذا كانت أعمال النـاس هي التي تعود اليهم بصورتها الحقيقية يـوم الآخرة فأيّة حجة للعباد علـى الله تعالى؟ يقول أميـر المؤمنين عليه السّلام في الدعـاء الذي علمه لكميل بن زيـاد رحمه الله : «ولك الحجة علـيّ في جميع ذلك، ولا حجـة لي فيما جرى عليّ فيه قضاؤك».

صراط الدنيا هو صراط الآخرة

إن «الصراط» في الآخرة هو الصورة المجسدة للصراط الذي يسلكه الانسان في الدنيا الى الله تعالى، وكما أن الصراط فـي الدنيا يمر على جحيم الشهوات والاهواء والتعلق بالدنيـا وعبر هذه الدنيا يوصـل الانسان الى الله تعالى، كـذلك الصراط في الآخرة تجسيد لهذا الصراط يعبر عليه الناس جهنـم الى الجنة، فمن سقط هناك في لجج الشهـوات والاهواء وتملكت الشهـوات والاهواء أموره سقـط في الآخرة فـي نار الجحيم، ومـن إستطاع أن يجتاز الـدنيا الى الله تعـالى، دون أن يتلوث بهـا وينشد اليها، وعـاش فيها كمـا يعيش النـاس، ولكن لـم يسقط فيهـا ولم يملكهـا أمره ...

يستطيع في الآخرة أن يجتاز الصراط الى الجنة وأن يرد النار ويخرج منها على الصراط الى الجنة .

عن الامام الحسن العسكري عليه السّلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السّلام : «والصراط المستقيم هو صراطان : صراط في الدنيا وصراط في الآخرة ، وأما الصراط المستقيم في الدنيا فهو ما قصر عن الغلو وإرتفع عن التقصير ، وإستقام فلم يعدل الى شيء من الباطل ، وأما الطريق الآخر فهو طريق المؤمنين الى الجنة» . (١)

وعن المفضل بن عمر قال : سألت أبا عبد الله عليه السّلام عن الصراط ، فقال : هو الطريق الى معرفة الله عزوجل ، وهما صراطان ، صراط في الدنيا ، وصراط في الآخرة ، أما الصراط الذي في الدنيا فهو الامام المفروض الطاعة من عرفه في الدنيا ، واقتدى بهداه مر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة ، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنم» . (٢)

الصراط أدق من الشعر وأحدّ من السيف

وهذا الصراط الذي يعبر عليه الناس يوم القيامة الي الجنة دقيق وحاد وصعب .

وقد روي عن الامام الصادق عليه السّلام : «الصراط أدق من الشعر ، وأحدّ من السيف» . (٣)

وهذا التعبير يرمز الى دقة الحدود الشرعية وصرامتها وهذه الدقة والصرامة في الحدود الإلهية التي هي صراط الله المستقيم في الدنيا تنعكس على الصراط يوم القيامة ، فيكون حاداً كالسيف دقيقاً كالشعر ، لا يستطيع أن يمر عليه بسلام إلا من وعى حدود الله تعالي في الدنيا وحفظها وعمل بها بدقة وصرامة وجدية .

(١) معاني الاخبار١ / ٢٩ طبع النجف .

(٢) معاني الاخبار١ / ٢٨ طبع النجف .

(٣) مجمع البيان٣ / ٥٢٥ .

يقول صدر المتألهيـن في الأسفار: «إن كمال الانسان منوط بـاستعمال قوتيه: أما القوة النظريـة فلإصابة الحق ونور اليقيـن في سلوك الانظار الدقيقة التـي هي في الدقـة واللطافة أدق من الشعـر، وأما القوة العملية فبتعـديل القوى الثلاث التـي هي الشهوية والغضبية والفكريـة في أعمالها لتحصل للنفس حالة إعتـدالية متوسطة بين الاطراف غاية التوسط، لأن الاطراف كلها مذمومة يوجب السقوط في الجحيم ومنزل البعداء والاشقياء المردودين وقد علمت أن التـوسط الحقيقي بين الاطراف المتضادة بمنزلة الخلو عنهـا، والخلو عن هذه الاطراف المسمى بالعدالـة منشأ الخلاص عن الجحيم وهـي أحد مـن السيف، فإذن الصـراط له وجهان أحـدهما أدق مـن الشعر والآخر أحد من السيف».

وسلوك الصـراط المستقيم في الـدنيا سلوك صعـب من النـاحية النظريـة ومن الناحيـة العملية، أما مـن الناحيـة النظرية فـإنّ تشخيص حدود اللـه تعالـى يتطلب الكثير من الـدقة وإمعان النظر، وأما مـن الناحية العملية فإنّ تطبيـق الحدود الإلهية يحوج الانسان الى الصرامة والحسم، والتسـامح في هذا أو ذاك يحرف الانسان عن الصراط المستقيم.

وهذان همـا وجها الصـراط، الدقـة والصرامـة، وهذان الـوجهان قـائمان فـي الصراط يوم القيـامة فمن إستقام على الصراط فـي الدنيا علي حديـه إستطاع أن يمر على الصراط يوم القيامـة بيسر وراحة، ومن تخطى الصراط في أحد حـديه في الدنيا إنزلق قدمه على الصر اط في الاخرة في واحد من حديه.

إختلاف درجة سرعة الناس على الصراط

للناس في إجتياز الصراط الى الجنة درجات مـن السرعة فمنهم من يمر كالبرق الخاطـف ومنهم من يمـر كعدو الفرس ومنهـم من يمـر الصراط بسرعـة دون ذلك، ومنهم من يمر الصراط حبواً، ومنهم من يمر متعلقـاً بالصراط، تصيب النار منه طرفاً وتترك له طرفاً.

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: الناس يمرون علي الصراط طبقات، والصراط أدق من الشعر، ومن حد السيف، فمنهم من يمر مثل البرق ومنهم من يمر مثل عدو الفرس ومنهم من يمر حبواً، ومنهم من يمر مشياً، ومنهم من يمر متعلقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً.[١]

وإختلاف الناس في العبور من الصراط يوم القيامة يجسد بنسبة عكسية حركة الانسان على الصراط المستقيم في الدنيا فكلما تكون درجة معاناة الانسان مع نفسه في تجاوز الشهوات والاهواء والضغط عليها أكثر في الحياة الدنيا تكون حركته علي الصراط المستقيم أيسر وأسهل، فمن الناس من يمارس على نفسه ضغطاً قوياً للسيطرة على أهوائه وشهواته ونزواته وإنفعالاته النفسية ويخضع نفسه لسلطان دين الله وسلطان العقل، ويروض نفسه للتقوى أولئك ييسر الله تعالى لهم مرورهم على الصراط بقدر معاناتهم ومن الناس من تكون معاناته في الدنيا دون ذلك ويسمحون لأنفسهم من الحرية أكثر من الطبقة الاولي أولئك يكون مرورهم على الصراط أصعب وأكثر عناء، ومن الناس من يطلقون لأنفسهم العنان حيناً ويضبطونها حيناً أولئك الذين يتعلقون بالصراط يوم القيامة يصب منهم النار أطرافاً وتترك لهم أطرافاً، ومن الناس من يتحلل من هذه الضوابط «حدود الله» جميعاً، ويطلقون لأنفسهم العنان من غير تحرج ولا تأثم... أولئك يسقطون في نار جهنم من على الصراط لولا رحمة الله تعالى.

وقد شاء الله تعالى للانسان أن تقترن حياته في الدنيا بالمعاناة والابتلاء والصبر، وأن تكون هذه المعاناة والابتلاء والصبر هي سلم الانسان الى الله تعالى، وأن تأتي هذ المعاناة والابتلاء في حركة الانسان على صراط الله المستقيم في الدنيا والتزامه بحدود الله وحلاله وحرامه... ومن دون هذه المعاناة لا يمكنه أن يعبر الصراط المستقيم في الدنيا الى الله تعالى، ولا أن يجتاز الصراط يوم القيامة الى الجنة.

(١) بحار الانوار ٨/ ٦٤-٦٥.

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنَّة ولمّا يأتكم مَثَل الَّذين خلَوا من قبلكم مسَّتهم البأساء والضَّرّاء﴾ . (البقرة : ٢١٤)

﴿ولنبلونَّكم بشيءٍ من الخَوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثَّمرات وبشِّر الصَّٰبرين﴾ . (البقرة : ١٥)

﴿الم*أحسب النّاس أن يُتركوا أن يقولوا ءامنّا وهم لايُفتنون﴾ . (العنكبوت : ١-٢)

وإن المؤمنين ليمرون على الصراط الممدود على جهنم ، فتكون النار عليهم برداً وسلاماً ، لا يحسون بحرّها .

عن إبن مسعود قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول : لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم ، حتى أن للنار ضجيجاً من بردهم ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً .[١]

ويرد المؤمنون الجنة ، فيتساءلون فيما بينهم عن الورود في نار جهنم الذي وعدهم الله تعالى ، فيقال لهم إنكم مررتم عليها فلم تحسوا بحرِّ نارها .

عن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن هذه الآية «إن منكم إلا واردها»، فقال : اذا دخل أهل الجنة ، قال بعضهم لبعض : أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار؟ فيقال لهم : قد وردتموهاوهي جامدة .[٢]

وإن نور المؤمن حينما يعبر الصراط ليطفىء لهب جهنم فيردها المؤمن عبر الصراط الى الجنة فلا يحس بها .

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : تقول النار للمؤمن يوم القيامة : جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي .[٣]

(١) الدر المنثور٤/ ٢٨٠ .

(٢) الكشاف٢/ ٥٢٠ .

(٣) تفسير الصافي : . ٣٢ .

وإن نار جهنم تعرف أصحابها فتلتهمهم وتترك من عداهم من أهل الجنة .

«ثم ينادي المنادي أن خذي أصحابك وذري أصحابي قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : فوالذي نفسي بيده لهي أعرف بأصحابها من الوالدة بولدها . (١)

عقبات الصراط

كما أن على «الصراط المستقيم» في الدنيا عقبات كذلك على الصراط في الآخرة عقبات ، والعقبات هي العقبات .

والعقبة هي الممرات الجبلية الضيقة والصعبة والصراط الى الله تعالى في الدنيا قد يكون رحباً سهلاً ، وقد يدق هذا الصراط ويضيق ، ويصعب سلوكه ويكون مزلقاً ينزلق عليه الناس .

ودقة الصراط المستقيم تأتي في مرحلة تشخيص الحكم الإلهي والتكليف ، فإن التكليف الشرعي قد يدق أحياناً ويحتاج تشخيصه الى دقة كثيرة ، والمسامحة في تشخيص التكليف والحدود الشرعية يؤدي الى الانحراف عن الصراط المستقيم .

يقول أُبان : قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السّلام : ما تقول في رجل قطع إصبعاً من أصابع إمرأة كم فيها؟ قال : عشرة من الابل ، قلت : قطع إثنين؟ قال : عشرون ، قلت : قطع ثلاثاً؟ قال : ثلاثون ، قلت : قطع أربعاً؟ قال : عشرون .

قلت : سبحان الله ، يقطع ثلاثاً فيكون عليه ثلاثون ، ويقطع أربعاً ، فيكون عليه عشرون ، إن هذا كان يبلغنا ونحن بالعراق فنبرأ ممن قال ، ونقول : إن الذي قاله الشيطان ، فقال عليه السّلام : مهلاً يا أُبان ، هذا حكم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إن المرأة تعاقل الرجل الى ثلث الدية ، فاذا بلغت الثلث رجعت المرأة الى النصف ، يا أبان إنك أخذت بالقياس والسنة اذا قيست محق الدين . (٢)

(١) مجمع البيان ٥/ ٥٢٦ .

(٢) القوانين المحكمة ٢/ ٨٩ الطبعة الحجرية .

وكما يدق الحكم الشرعي في مرحلة التشخيص كذلك يصعب الحكم الشرعي في مـرحلة التنفيـذ حيث يصطـدم الحكـم الشرعـي برغبـات الانسان وأهـوائه فيكره الاستجابة للحكم الشرعي، ويجد صعوبة كبيرة في التنفيذ.

يقول تعالى: ﴿كُتب عليكم القتال وهو كُرهٌ لكم﴾. (البقرة: ٢١٦)

وقد يبتلي الله تعالى عباده الصالحيـن بالمرور من عقبات صعبة على الصراط لا يقوى عليها الكثيرون ولنا في القرآن الكريم أمثلـة كثيرة على ذلك نذكر منها إبتلاء الله تعـالى لعبـده وخليله إبـراهيم عليه السّـلام حيـث أراد الله تعـالـى أن يـذبح إبنـه إسماعيل، وهو في غضاضة شبابه، بيده ﴿فلمّا بلغ معه السَّعـي قال يـٰبنيَّ إنّي أرىٰ في المنام أنّي أذبحُك فـانظر ماذا ترىٰ قال يـٰأبتِ افعل ما تؤمـر ستجدني إن شاء اللّه من الصّـٰبرين*فلمّا أسلما وتلّه للجَبين*وناديَنٰـه أن يـٰإبراهيم*قد صدَّقت الرُّؤيا إنّا كذٰلك نجزي المحسنين*إنَّ هـٰذا لهو البَلـٰؤُا المبين﴾. (الصافات: ١٠٢-١٠٦)

أجل إن الصـراط المستقيم قد يـدق فيحتاج الانسان الى الكثيـر من الدقـة في إجتيازه فـي مرحلة تشخيـص التكليف والحكم، وقـد يصعب فيحتاج الانسـان الى الكثير من الصبر والعزم والقوة حتى يجتازه، تماماً كما تدق المـمرات الجبلية فتضيق ويصعب إجتيـازها... كـذلك قـد يصعب المرور علـى الصراط-فـي مرحلـة تنفيذ الحكم الشرعـي-في بعض النقاط ويحتـاج المرور على هذه النقـاط والعقبات الى جهد كبير وصبر، تماماً كما يصعب الصعـود الى قمم الجبال على الممرات الجبلية الصعبة.

وهذه هي عقبـات الصراط في الدنيا، توازي وتقـابل عقبات مشابهة فـي الدقة والصعوبة في الآخرة، على الصراط الممتد من الموقف الى الجنة عبر جهنم، فيدق الصراط حيناً، ويصعب المـرور على الصراط حيناً آخر، وهذه هـي «العقبات» على الصراط.

والذي يبـدو من النصـوص الاسلاميـة أن هذه العقبـات على الصـراط عقبات حقيقية محسوسة، وليست من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس، كما يبدو ذلك من

خلال كلام الشيخ المفيد رحمه الله وكل عقبة من هذه العقبات تخص فرضاً أو نهياً من حدود الله تعالى، وهي العقبات على الصراط المستقيم، فأذا أدّى هذه الفروض وانتهى عن هذه النواهي والتزم فيها بحدود الله تعالى وأحكامه، إجتاز العقبات المناظرة لها على الصراط يوم القيامة بسهولة وراحة وسرعة، ومن تسامح فيها أو أهملها في الدنيا-وجد في العقبات المناظرة لها في الصراط في القيامة صعوبة ومشقة قد يمتنع عليه إجتيازها لولا رحمة الله تعالى.

يقول الشيخ الصدوق في العقائد: «إعتقادنا في العقبات التي علي طريق المحشر أن كل عقبة منها إسمها إسم فرض وأمر ونهي، فمتى إنتهى الانسان الى عقبة إسمها إسم فرض وكان قد قصر في ذلك الفرض، حبس عندها، وطولب بحق الله فيها، فإن خرج منها بعمل صالح قدمه أو برحمة تداركه نجا منها الى عقبة أخرى، فلا يزال يدفع من عقبة الى عقبة، ويحبس عند كل عقبة، فيسأل عما قصر فيه من معنى إسمها، فإن سلم منها جميعاً إنتهى الى دار البقاء، فيحيى حياة لا موت فيها أبداً، وسعد سعادة لا شقاوة معها أبداً، وسكن في جوار الله مع أنبيائه وحججه والصديقين والشهداء الصالحين من عباده، وإن حبس على عقبة فطولب بحق قصر فيه، فلم ينجه عمل صالح قدمه، ولا أدركته من الله عزوجل رحمة زلت به قدمه عن العقبة فهوى في جهنم نعوذ بالله منها... وأهم عقبة منها المرصاد، وهو قول الله عزوجل: «إن ربك لبالمرصاد»، وإسم عقبة منها الرحم، وإسم عقبة مها الامانة، وإسم عقبة منها الصلاة، وبإسم كل فرض أو أمر أو نهي عقبة يحبس عندها العبد فيسأل». (١)

عقبة المرصاد

فإذن هناك عقبات على الصراط يوم القيامة بأسماء الفروض والاحكام وحدود

(١) بحار الانوار/٧ ١٢٨-١٢٩.

الله، مثل عقبة الصلاة وعقبة الصوم وعقبة الجهاد وعقبة الحج وعقبة الامانة وعقبة الرحم، وعقبة الغيبة وعقبة الكذب وما الى ذلك من الفروض والاحكام والحدود الالهية فمن إجتاز هذه العقبات واقتحمها في الدنيا إقتحمها في الآخرة.

يقول تعالى: **﴿فلا اقتَحَمَ العقبةَ*وما أدريٰك ما العقبةُ* فكّ رقبةٍ* أو إطعٰم في يوم ذي مَسغبةٍ*يتيماً ذا مقربة*أو مَسكيناً ذا مَتربة﴾**. (البلد: ١١-١٦)

والقرآن يُحرض المؤمنين على إقتحام هذه العقبات وتجاوزها وهي الحائلة في الدنيا بينهم وبين مرضاة الله تعالى فمن إقتحمها بلغ مرضاة الله، ومن وقف دونها حجب عن مرضاة الله، وكذلك هي في الآخرة حائلة بينهم وبين الجنة فمن إقتحمها بلغ الجنة، ومن حبس دونها حجب عن الجنة.

وعقبة المرصاد أعظم هذه العقبات جميعاً فإن ربك لبالمرصاد.

والله تعالى يرصد ويرقب من أعمال الناس ونياتهم ما لا يرصده الناس ولا الملائكة، فإن الله تعالى: **﴿يعلم خائنةَ الأعيُن وما تُخفي الصُّدور﴾**. (غافر: ١٩)

﴿واعلموا أنَّ اللّه يَحُول بين المرء وقلبه﴾. (الانفال: ٢٤)

فهو سبحانه وتعالى في موقع الرصد لعباده، يرصد من قلوب عباده ونياتهم ما لا يرصده غيره، وطبيعة «الرصد» أن يرى «الراصد» المرصود ويراقبه من حيث لا يراه المرصود وأن يهيمن الراصد على المرصود.

والانسان في هذه الدنيا يقع تحت الرصد والرقابة الالهية المباشرة في أعماله ونياته وخلجات ضميره، وهو غافل عن ذلك، فاذا إختفى عن الناس في بعض أفعاله، أو أخفى على الرقباء بعض نياته فإنه لا يخفي على الله شيئاً، وهو مكشوف لله تعالى في ظاهره وباطنه، وواقع تحت هذا الرصد الالهي العجيب بصورة مباشرة.

وفي الآخرة كذلك اذا تجاوز العقبات التي تخص الفرائض والاحكام والحدود، فتبقى أمامه «عقبة المرصاد» هذه العقبة الصعبة التي يرصد الله تعالى فيها عباده ويعرف منهم ما لا يعرفه غيره من سيئات قلوبهم ونياتهم وما كان يشوب قلوبهم من

الرياء والعجب والشرك الخفي الذي قد يخفى على الانسان نفسه ... فهناك يتعرى الانسان بين يدي الله تعالى تعرية كاملة ولا يجوز هذه العقبة ﴿إلاّ من أتى اللّهَ بقلب سليم﴾(الشعراء : ٨٩) أو من تدركه رحمة الله تعالى .

وقد ورد هذا المضمون في أحاديث كثيرة نذكر منها قسماً من الروايات الواردة في الصراط :

١- روى الصدوق في الأمالي : عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام قال : لما نزلت هذه الآية «وجيء يومئذ بجهنم» سئل عن ذلك رسول الله، فقال : أخبرني الروح الامين : أن الله لا إله غيره اذا جمع الاولين والآخرين أتى بجهنم ... لها هدة وتغيظ وزفير، وأنها لتزفر الزفرة فلولا أن الله عز وجل أخرهم الى الحساب لأهلكت الجمع ، ثم يخرج منها عنق يحيط الخلائق : البر منهم والفاجر فما خلق الله عزوجل عبداً من عباده ملكاً ولا نبياً إلا نادى : رب نفسي نفسي، وأنت يا نبي الله تنادي أمتي أمتي، ثم يوضع عليها صراط أدق من حد السيف عليه ثلاث قناطر، أما واحدة فعليها الامانة والرحم ، وأما الأُخرى فعليها الصلاة ، وأما الاخرى فعليها عدل رب العالمين لا اله غيره، فيكلفون الممر عليه فتحبسهم الرحم والأمانة فإن نجوا منها حبستهم الصلاة ، فإن نجوا منها كان المنتهى الى رب العالمين جلّ وعز، وهو قوله تبارك وتعالى : «إن ربك لبالمرصاد» والناس على الصراط فمتعلق ، وقدم تزل ، وقد تستمسك ، والملائكة حولهم ينادون : يا حليم إغفر، واصفح ، وعد بفضلك وسلّم سلّم ، والناس يتهافتون فيها كالفراش ، واذا نجا ناج برحمة الله عزوجل نظر اليها فقال : الحمد لله الذي نجاني منك بعد أياس بمنه وفضله ، إن ربنا لغفور شكور.[١]

٢- وروي عن إبن عباس في تفسير قوله تعالى : «إن ربك لبالمرصاد» قال : إن على جسر جهنم سبع محابس يسأل العبد عند أولها عن شهادة أن لا اله إلا الله ، فإن جاء بها تامة جاز الى الثاني فيسأل عن الصلاة ، فإن جاء بها تامة جاز الى

(١) بحار الانوار/٧ ١٢٥-١٢٦ .

الثالث فيسأل عن الزكاة، فإن جاء بها تامة جاز الى الرابع فيسأل عن الصوم، فإن جاء به تاماً جاز الى الخامس فيسأل عن الحج، فإن جاء به تاماً جاز الى السادس فيسأل عن العمرة، فإن جاء بها تامة جاز الى السابع فيسأل عن المظالم، فإن خرج منها وإلا يقال: انظروا، فإن كان له تطوع أكمل به أعماله فإذا فرغ انطلق به الى الجنة. (١)

٣- عن غالب بن محمد، عمن ذكره، عن أبي عبد الله عليه السّلام، في قوله عزوجل: «إن ربك لبالمرصاد» قال: قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة. (٢)

٤- عن حنان بن سدير، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السّلام قال: قال أبو ذر(رض): سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والامانة، فاذا مر الوصول لرحمة المؤدي للامانة نفذ الى الجنة، واذا مر الخائن للامانة القطوع للرحم لم ينفعهما معهما عمل، وتكفأ به الصراط في النار. (٣)

وحافتا الصراط كحافتي الجسر وهو السياجان اللذان على حافتي الجسر يحميان العابرين من السقوط، وكذلك على حافتي الصراط الذي يمر على جهنم سياجان وهما الرحم والامانة، فمن كان وَصولاً لرحمه حافظاً للأمانة حماه هذان السياجان من السقوط من على الصراط في نار جهنم كما يحمي السياج الانسان من السقوط في النهر، ولو لم يكن كذلك أنزلقت قدمه من الصراط فهوى في جهنم.

٥- وفي نهج البلاغة: واعلموا أن مجازكم على الصراط ومزالق دحضة وأهاويل زلله ونارات أهواله. (٤)

٦- عن أنس بن مالك، عن أبيه، عن جده، عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال:

(١) بحار الانوار٨/ ٦٤.

(٢) بحار الانوار٨/ ٦٦ح٥.

(٣) بحار الانوار٨/ ٦٧ح٩.

(٤) نهج البلاغة.

اذا كان يوم القيامة ونصب الصراط على جهنم لم يجز عليه إلا من كان معه جواز فيه ولاية علي بن أبي طالب عليه السّلام، وذلك قوله «وقفوهم إنهم مسؤولون» يعني عن ولاية علي بن أبي طالب. (١)

تأمين المرور على الصراط

وصالح أعمال الانسان يؤمن للانسان يوم القيامة المرور على الصراط وتجاوز أهوال الصراط ومزاله ومزالقه، فكلما تعسر على الصراط أتاه عمل صالح من أعماله في الدنيا فييسر له المرور وتجاوز تلك العقبة، وكلما زلت بالانسان قدمه على الصراط، لدقة الصراط، وكاد أن يسقط الانسان في جهنم حفظته أعماله الصالحة من السقوط.

وننظر فيما يلي في شطر من الروايات الواردة في هذا الباب:

١ - روى الصدوق في الامالي عن سعيد، عن المسيب، عن عبد الرحمن بن سمرة، قال: كنا عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يوماً فقال: إني رأيت البارحة عجائب، قال: فقلنا: يا رسول الله وما رأيت؟ حدثنا به فداك أنفسنا وأهلونا وأولادنا فقال: رأيت رجلاً من أمتي وقد أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه برّه والديه فمنعه منه، ورأيتُ رجلاً من أُمتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوئه فمنعه منه، ورأيتُ رجلاً من أُمتي قد إحتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله عزوجل فنجاه من بينهم، ورأيتُ رجلاً من أمتي قد إحتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فمنعته منهم، ورأيتُ رجلاً من أُمتي يلهث عطشاً كلما ورد حوضاً منع فجاءه صيام شهر رمضان فسقاه وأرواه، ورأيتُ رجلاً من أُمتي والنبيون حلقاً حلقاً كلما أتى حلقة طردوه فجاءه إغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأجلسه الى جنبه، ورأيتُ رجلاً من أُمتي بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة، ومن تحته ظلمه مستنقعاً

(١) بحار الانوار٨/ ٦٧-٦٨ح١١.

في الظلمة، فجاءه حجه وعمرته فأخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور، ورأيتُ رجلاً من أُمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءه صلته للرحم فقال: يا معشر المؤمنين كلموه فإنه كان واصلا لرحمه فكلمه المؤمنون وصافحوه وكان معهم، ورأيتُ رجلاً من أُمتي ينقي وهج النيران وشررها بيده ووجهه فجاءته صدقته فكانت ظلاً على رأسه وستراً على وجهه، ورأيتُ رجلاً من أُمتي قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فخلصاه من بينهم وجعلاه من ملائكة الرحمة، ورأيتُ رجلاً من أُمتي جاثياً على ركبتيه، بينه وبين رحمة الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذه بيده فأدخله في رحمة الله، ورأيتُ رجلاً من أُمتي قد هوت صحيفته قبل شماله فجاءه خوفه من الله عزوجل فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه، ورأيتُ رجلاً من أُمتي قد خفت موازينه فجاءه إفراطه فثقلوا موازينه، ورأيتُ رجلاً من أُمتي قائماً على شفير جهنم فجاءه رجاؤه من الله عزوجل فاستنقذه من ذلك، ورأيتُ رجلاً من أُمتي قد هوى في النار فجاءته دموعه التي بكي من خشية الله فاستخرجته من ذلك ورأيت رجلاً من أمتي على الصراط يرتعد كما ترتعد السعفة في يوم ريح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله فسكن ردعدته ومضى على الصراط، ورأيتُ رجلاً من أُمتي على الصراط يزحف أحياناً ويحبو أحياناً ويتعلق أحياناً فجاءته صلاته عليّ فأقامته على قدميه ومضى على الصراط، ورأيتُ رجلاً من أُمتي إنتهى الى أبواب الجنة كلما إنتهى الى باب أغلق دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله صادقاً بها ففتحت له الابواب ودخل الجنة.(١)

٢- روى الكليني في الكافي عن سدير الصيرفي قال: قال أبو عبد الله عليه السّلام في حديث طويل: «اذا بعث الله المؤمن من قبره خرج معه مثال يقدمه أمامه، كلما رأى المؤمن هولاً من أهوال يوم القيامة قال له المثال: لا تفزع ولا تحزن وأبشر بالسرور والكرامة من الله عزوجل حتى يقف بين يدي اله عزوجل فيحاسبه حساباً

(١) بحار الانوار/٧ ٢٩٠-٢٩١.

يسيراً، ويأمر به الى الجنة والمثال أمامه فيقول له المؤمن: يرحمك الله نعم الخارج خرجت معي من قبري، وما زلت تبشرني بالسرور والكرامة من الله حتي رأيت ذلك، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا السرور الذي كنت أدخلته على أخيك المؤمن في الدنيا، خلقني الله عزوجل منه لأبشرك.(١)

٣- عن علي بن الهندي، عن أبي عبد الله عليه السّلام قال: من زار أخاه في الله ولله جاء يوم القيامة يخطر بين قباطي من نور، لا يمر بشيء إلا أضاء له حتى يقف بين يدي الله عزوجل فيقول الله عزوجل: مرحباً، واذا قال الله له: مرحباً أجزل الله عزوجل له العطية.(٢)

٤- عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السّلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: من أعان مؤمناً نفس الله عزوجل عنه ثلاثاً وسبعين كربة: واحدة في الدنيا وإثنتين وسبعين كربة عند الكربة العظمى، قال: حيث يتشاغل الناس بأنفسهم.(٣)

رفق الله تعالى بعباده في الحساب

ولئن كانت العقبات على الصراط صعبة ومزالق الاقدام، فإن رحمة الله تعالى بعباده ومغفرته لهم تيسر لهم الحساب والمرور على الصراط، وتستر عليهم ذنوبهم وسيئاتهم في الدنيا، حتى أن العبد يحاسبه الله تعالي فيعترف له عزّ شأنه بذنوبه، فيغفر الله له ويبدل سيئاته بالحسنات ويظهره للناس، بعد هذا التبديل من دون أن تكون عليه سيئة ويأمر به الى الجنة، فيعجب الناس يومئذ منه، كيف لم يروا له سيئة.

في «أمالي الطوسي» عن المفيد بسنده عن العلاء، عن محمد قال: سألت أبا

(١) بحار الانوار/٧ /١٩٧ح٦٩.

(٢) بحار الانوار/٧ /١٩٧ح٦٨.

(٣) تفسير الصافي: ٢٠ الطبعة الحجرية.

جعفر «الباقر» عليه السّلام عن قول الله عز وجل: **﴿فأولئك يبدِّل اللّه سيِّئاتهم حسناتٍ وكان اللّه غفوراً رحيماً﴾** فقال عليه السّلام: يؤتي بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يقام بموقف الحساب، فيكون اللـه تعالى هو الذي يتولي حسابـه، لا يطلع علي حسابه أحداً من الناس، فيعرفه ذنوبه حتى اذا أقر بسيئاته، قال الله عزوجل للكتبة: بدلوها حسنات وأظهروها للناس، فيقول الناس حينئذ: مـا كان لهذا العبد سيئة واحدة، ثم يأمر الله به الى الجنة. (١)

الصراط صورة الانسان و واقعه

حركة الانسان الي الله تعالى وعلـى الصراط المستقيم هو الصراط الذي يقطعه يوم القيامة، عبر جهنم، الى الجنة.

وبموازاة هذه الحركة يتحرك الانسان حركة من نوع آخر في داخله، الى الكمال أو الانحطاط، حسبما تكون حركته في الخـارج الى الاعلى أو الى الاسفل، الى الله تعالى أو الى الهـوى والانا فعندما تكون حركـة الانسان الى الله تعالى تـم في داخل الانسان حـركة أخرى يتكـامل بهـا الانسان حتى يبلـغ مرحلة الصـديقين والسـابقين وأصحاب اليمين، وعندما تكون حركته الى الاسفل، وباتجاه الاهواء فإن هذه الحركة الداخلية تكـون حركة تنازليـة حتى يكون صاحبهـا من أصحاب الشمال ومـن أولياء الشيطان.

﴿ونفسٍ وما سوّٰيها*فألهَمَها فجورها وتقـويٰها*قد أفلح من زكّٰيها*وقد خاب من دسّٰيها﴾. (الشمس: ٧-١٠)

إن هذا الذي يسميه القرآن بالفلاح والخيبة في هذه الآيات المباركات من سورة الشمـس إنما هـو مرحلـة من تكـامل و إنحطـاط الانسان ودرجـة في حـركة النفـس الصاعدة والنازلة، فإن الانسان كما ينمو ويهزل وينتكس في نموه الجسدي، كذلك

(١) معاني الاخبار: ٢٨.

ينمو وينتكس ويهزل في نموه وحركته النفسية، وفي كل يوم لنفس الانسان صورة قد تختلف عن صورتها في اليوم السابق باتجاه صاعد أو هابط ... وصورة النفس ودرجتها هي صراطها في الآخرة، فاذا كانت صورة النفس ضعيفة هزيلة ومن أصحاب الشمال وأولياء الشيطان كان صراطه ينتهي الى جهنم، واذا كانت النفس كاملة وفي درجات رفيعة من الكمال فإن صراط كل إنسان يعكس واقعه النفسي ودرجته من الكمال والانحطاط.

وقد روي عن الامام الصادق عليه السلام بهذا المعنى: أن الصورة الانسانية هي الطريق المستقيم الي كل خير والجسر الممدود بين الجنة والنار.[1]

هذه الصورة هنا-في الحياة الدنيا-خافية على الناس، ولا يرى الناس غير هذا الظاهر المرئي المشهود من أنفسهم فاذا حشروا برز الناس يوم القيامة على حقائقهم وبصورهم الواقعية، وذلك ﴿يوم تُبلَى السَّرائر﴾(الطارق: ٩) وعندئذ يشهد الناس بعضهم بعضاً بصورهم الحقيقية وتتجسد لهم صورهم الواقعية.

إن الانسان قد ينسلخ هنا من ضميره وعاطفته إنسلاخاً كاملاً، وقد ينسلخ من الايمان، وقد ينسلخ من الانسانية، فيبقى على صورته، ولكنه يوم القيامة يحشر على صورته الحقيقية المنسلخة عن الضمير والعاطفة والايمان والانسانية.

والصورة السوية للانسان هي صورة الفطرة، وهي الصراط المستقيم في الدنيا، فإن الفطرة تتطابق تطابقاً كلياً مع الصراط المستقيم، والصراط الذي يؤدي الي الجنة في القيامة يتطابق مع الصراط المستقيم في الدنيا، فالصراط إذن في الآخرة هي الصورة السوية للانسان والتي يعبر عنها القرآن الكريم بالفطرة، أما الصور المشوهة للانسان فهي صور المسالك والخطوط المنحرفة في الدنيا عن الصراط المستقيم ﴿وإنَّ الَّذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصِّراط لناكبون﴾(المؤمنون: ٧٤)، وهذه المسالك المنحرفة في الدنيا تتطابق في الآخرة مع الصراط الذي يؤدي بأصحابه الى

(١) تفسير الصافي: ٢٠.

الجحيم: ﴿احشُروا الَّذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون *من دون اللّه فاهدُوهم إلىٰ صراط الجحيم﴾. (الصافات: ٢٢-٢٣)

يقول الفيض الكاشاني في تفسير «الصافي»: أن لكل إنسان من إبتداء حدوثه الى منتهى عمره إنتقالات جبلّيّة باطنية في الكمال طبيعية ونفسانية تنشأ من تكرار الاعمال وتنشأ منها المقامات والاحوال فلا يزال ينتقل من صورة الى صورة ومن خلق الى خلق ومن عقيدة الى عقيدة ومن حال الى حال ومن مقام الى مقام ومن كمال الى كمال حتى يتصل بالعالم العقلي والمقربين ويلحق بالملأ الاعلى والسابقين إن ساعده التوفيق وكان من الكاملين أو من أصحاب اليمين إن كان من المتوسطين أو يحشر مع الشياطين وأصحاب الشمال إن ولاه الشيطان وقارنه الخذلان في المآل وهذا معنى الصراط والمستقيم منه ما اذا سلكه أوصله الى الجنة وهو ما يشتمل عليه الشرع كما قال الله عزوجل: ﴿وإنَّك لتهدي إلىٰ صراط مستقيم*صراطِ اللّه﴾ وهو صراط التوحيد والمعرفة والتوسط بين الاضداد في الاخلاق والالتزام بصوالح الاعمال وبالجملة صورة الهدى الذي أنشأه المؤمن لنفسه ما دام في دار الدنيا مقتدياً فيه بهدى امامه وهو أدق من الشعر وأحدُ من السيف في المعنى مظلم لا يهتدي اليه إلا من جعل الله له نوراً يمشي به في الناس يسعى الناس عليها على قدر أنوارهم.(١)

الامام: الصراط

ولعل من أبلغ التعابير عن الصراط: أن الصراط هو الامام، فإن الصراط في الآخرة هو تجسيد للصراط المستقيم في الدنيا، والامام هو الواقع السلوكي للصراط المستقيم والتجسيد الحي الواقعي له.

فإن للصراط المستقيم في الدنيا نحوين من الظهور: ظهور في التعليمات والاحكام والحلال والحرام، وظهور آخره في الواقع العيني لسلوك الامام وتحركه

(١) بحار الانوار/٧/ ١٩٧ح٧٠.

وتصرفه، فإن هذا السلوك يجسد بدقة الصراط المستقيم.

وفي إتباع «الامام» يستطيع أن يهتدي الانسان الى الصراط المستقيم الهادي الى الله تعالى.

روى الصدوق في معاني الاخبار عن المفضل بن عمر، قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السّلام عن الصراط، فقال: هو الطريق الى معرفة الله عزوجل، وهما صراطان: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة، فأما الصراط الذي في الدنيا فهو الامام المفروض الطاعة، من عرفه في الدنيا، واقتدى بهداه مر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنم.[1]

ولابد في حياة الانسان من هذين الامرين معاً، ليهتدي الى الصراط المستقيم: من الاحكام والحدود والتعليمات: «الكتاب» ومن التجسيد الواقعي الحي للكتاب وهو «الامام» لابد في حياة الانسان من «الكتاب» و «الامام» معاً، وهما مظهران للصراط المستقيم في حياة الانسان.

ولا تكفي التوجيهات والتعليمات والحدود والاحكام التي يتكفل بها الكتاب، ما لم يتجسد هذا الكتاب في حياة الناس بصورة واقعية، وفي حركة عينية.

وللامام في حياة الناس دوران: دور القيادة ودور القدوة، وكلاهما ضروريان في توجيه الانسان الى الله تعالى وهنا نتحدث نحن عن الدور الثاني، وهو دور القدوة والاسوة.

إن الامام «قدوة» للناس على الصراط المستقيم الى الله يجد فيه الناس صراط الله المستقيم وتتحول فيه الاحكام والحدود الالهية والضوابط والقيم والمفاهيم المجردة الى حركة واقعية في مضطرب الحياة وخضم الصراع، وفي وسط الاهواء والمغريات، فتكتسب هذه القيم والاحكام والحدود قيمتها الحقيقية في وسط هذه

(١) أمالي الشيخ الطوسي: ٤٤-٤٥.

العوامل المتصارعة على ساحة الحياة.

إن القيمة الحقيقة للتقوى تبرز عندما ينشطر الانسان الى شطرين متصارعين، شطر للعقل يدعو الانسان الى الالتزام بحدود الله وشطر للهوى يدعو الى إتباع الهوى فاذا أفرز هذا الصراع الداخلي «التقوى» وتمحض الورع من هذه المعاناة الداخلية الشديدة فسوف تكتسب التقوى ويكتسب الورع قيمتهما الحقيقية، وأن قيمة الصبر فيما تفرزه المعاناة والابتلاء، وقيمة الحلم فيما تفرزه المقدرة والغضب وقيمة الزهد فيما يفرزه إقبال الدنيا والسعة في المال وقيمة التواضع فيما يفرزه السلطان... وإلا فلا قيمة للتواضع عند إنعدام السلطان، وللزهد في حال الفقر وللصبر في أحوال اليسر والعافية وللحلم عند الرضا وللتقوى والورع في حالة ركود وخمود الغرائز.

إن هذا الافراز الذي تحدثنا عنه هو كل قيمة هذه القيم، وإلا فاذا جردنا هذه القيم من هذا الوسط فلا تبقى لها ثمة قيمة كبيرة.

وهذا الافراز يتم من خلال حياة «القدوات الصالحة» فتتحول من قيم مجردة الى قيم ذات جاذبية في حياة الناس، وذلك أن الناس يرون في «القدوة الصالحة: الامام» مرآة لأنفسهم في صورتهم السوية وفي حالة سلامة الفطرة واستقامتها، فإن الله تعالى خلق الناس جميعاً على هذه الفطرة السوية، وإنما يشط من شط عن الصراط السوي لا لعجز في تكوينهم الفطري وإنما بسبب الاستجابة للاهواء والمغريات، فكل منا كان يمكنه أنْ يستقيم على الفطرة، وكل منا قد آتاه الله تعالى هذا الكنز العجيب من الفطرة، وآتاه الله تعالى هداه ورشده، لولا أن يستجيب لعوامل الهوى المغرية **﴿ألم نجعل له عينينِ*ولساناً وشفتينِ*وهدَينٰه النَّجدينِ﴾**. (البلد: ٨-١٠)

فنحن إذن نجد في القدوة الصالحة والامام مرآة لانفسنا ولفطرتنا في الوقت الذين نجد فيه الصراط الالهي المستقيم... وهذا هو سر جاذبية «القدوة» و «الامام» في حياة الناس.

ولعل ذلك من أهم الاسباب التي تستوجب العصمة في الامام في الانبياء وفي خلفائهم من بعدهم، فلابد من وجود الامام في حياة الناس، ولابد أن يكون الامام قدوة كاملة للصراط المستقيم، ولا يتم هذا الامر، دون أن يكون الامام معصوماً من الاستجابة لعوامل الهوى والمغريات الضاغطة على النفس، ومن الخطأ والزلل والانحراف.

وفي القرآن الكريم إشارة واضحة الى ضرورة هذه العصمة والمناعة من الانحراف والخطأ في إستجابة الله تعالى لدعاء عبده وخليله إبراهيم أبي الانبياء عليه السّلام يقول الله تعالى:

﴿**وإذ ابتلىٰ إبراهيم ربُّه بكلمـٰتٍ فأتمَّهنّ قال إنّي جـٰعِلُك للنّاس إماماً قال ومن ذرِّيَّتي قال لا ينال عهدى الظّـٰلمين**﴾. (البقرة: ١٢٤)

فنفى تعالى أن يكون الظالم أهلاً للامامة، وكل من يرتكب ذنباً فقد إرتكب ظلماً.

واذا كان الامام بهذا التوضيح، هو الصراط المستقيم في الدنيا، فإن ذلك يستتبع أن يكون الامام هو الصراط في الآخرة، فإن الصراط في الآخرة تجسيد للصراط المستقيم، كما أن الامام في الدنيا تجسيد عملي للصراط المستقيم وإتباع الامام والاقتداء به هو المرور السليم على الصراط في الآخرة.

علي عليه السّلام هو الصراط

وبهذا الايضاح نستطيع أن نفهم الروايات التي تحدثنا بأن علياً هو الصراط المستقيم، وهو الصراط الى الجنة وبنوره وهداه يجوز الناس الصراط.

روى البحراني في «غاية المرام» عن قتادة، عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿**وأنّ هـٰذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه**﴾ قال: هذا طريق علي بن أبي طالب وذريته طريق مستقيم، ودين مستقيم فاتبعوه، وتمسكوا به فإنه واضح لا عوج فيه.[1]

(١) غاية المرام: ٤٣٢ باب٢٠٩.

وأخرج الخوارزمي في المناقب: الصراط صراطان، صراط في الدنيا وصراط في الاخرة، فأما الصراط في الدنيا فهو علي بن أبي طالب، وأما صراط الآخرة فهو جسر جهنم، من عرف صراط الدنيا جاز علي صراط الآخرة.(١)

وعن أبي هريرة: أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: أتاني جبرئيل، قال أبشرك يا محمد بما تجوز به على الصراط؟ قلت: بلى، قال: تجوز بنور الله، ويجوز عليٌّ بنورك، ونورك من نور الله، وتجوز أُمتك بنور علي، ونور علي من نورك ﴿ومن لم يجعلِ اللّه له نوراً فما له من نور﴾.(٢)

وروى الصدوق عن أبي عبد الله(الصادق) عليه السّلام، قال: الصراط المستقيم أمير المؤمنين علي عليه السّلام.(٣)

فمما لا شك فيه أن علياً عليه السّلام أحد أوضح مصاديق الصراط المستقيم في حياة الناس، وبالتالي هو الصراط الى الجنة، فهو المقياس الدقيق للصراط المستقيم، وهو المعلم الواضح على هذا الصراط، وقيمة علي عليه السّلام على الصراط المستقيم أنه تحرك الى جانب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم شطراً من عمره، وخاض الحروب، وقاسى من ألوان المعاناة، وخاض من بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم صراعاً طويلاً علي صعيد المواجهة المسلحة مع المارقين والقاسطين والناكثين، وأقبلت الدنيا عليه، واستلم مفاتيح بيت مال المسلمين، وتولى السلطان في رقعة واسعة من العالم، ورضى وغضب وظفر وانتصر وحورب ... ومع ذلك كان في وسط هذه الساحة المزدحمة بالاحداث وبالرضا والغضب مقياساً دقيقاً لحدود الله تعالى وأحكامه، لم يخرجه عن الصراط المستقيم رضا ولا غضب، ولم يتجاوز حدود الله في يسر أو عسر، ولم يشط عن الطريق السوي في حرب أو سلم.

وهذه الاستقامة على الصراط المستقيم في مثل هذه الظروف الصعبة التي مرت على الامام في حياته تجعل منه تجسيداً حياً وواقعياً للصراط المستقيم وبالتالي

(١) الغدير٢/ ٣١١.

(٢) تفسير فرات بن إبراهيم: ١٠٤-١٠٥.

(٣) معاني الاخبار: ٢٨.

للصراط الى الجنة .

رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وعلي عليه السّلام وجبرئيل عليه السّلام على الصراط

روى الصدوق في معاني الاخبار عن أبي جعفر(الباقر) عليه السّلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: يا علي اذا كان يوم القيامة أقعد أنا وأنت وجبرئيل على الصراط ، فلم يجز أحد إلا من كان معه كتاب فيه براءة بولايتك .(١)

وهذه الرواية ملفتة للنظر ، فلماذا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وعلي عليه السّلام وجبرئيل عليه السّلام على الصراط؟ وما علاقة جبرئيل عليه السّلام بالامر؟ إن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم هو الذي أقام الصراط المستقيم في حياة الناس بإذن الله تعالى بكل حدوده وضوابطه وحلاله وحرامه ، ودعا الناس الى السير عليه والالتزام به ، وجبرئيل عليه السّلام هو الذي بلغ الصراط المستقيم من الله تعالى الى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فهو الوسيط والرسول بين الله تعالى وبين رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في تبليغ هذا الصراط ، وعلي عليه السّلام هو وريث رسول الله على الصراط المستقيم ، أوكل اليه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أمر حراسة هذا الصراط وتقويمه ومراقبته ، لئلا يدخل الانحراف عليه ، ولئلا يشط الناس عنه ، فقد دعا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الامة المسلمة الى التمسك بالكتاب والعترة(٢) من بعده ، وأخبر أنهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض يوم القيامة ، والكتاب والعترة هما وجها الصراط المستقيم .

وصراط الجنة يوم القيامة من الصراط المستقيم في الدنيا ومن يتولى أمر هذا الصراط في حياة الناس في الدنيا فلابد أن يكون له حضور على ذلك الصراط في الآخرة .

(١) معاني الاخبار: ٣١.

(٢) روى ذلك جمع غفير من المحدثين الثقاة من السنة والشيعة من حديث الثقلين المعروف ، ومنهم مسلم في الصحيح والحاكم في مستدرك الصحيحين وأحمد بن حنبل في المسند وغيرهم من ثقاة المحدثين .